ّالفصلُ الأوّلُ

بَيضاتُ النَّعامِ في الرَّمْلِ

نَعَقَ غُرابٌ في اللّحظةِ التي بَدأ فيها أفرادُ قَبيلةٍ مِن بَدوِ الصَّحراءِ بِطَيِّ خِيامِهم . تَوقّفَ أفرادُ تِلكَ المَجموعةِ مِنَ النّاسِ عنِ العَمَلِ ليُصغُوا السَّمعَ . نَعيقُ غُرابٍ في الصَّباحِ الباكِرِ عَلامةُ شُؤمٍ . رُغمَ ذلكَ اتَّخذوا قَرارًا بِالبَدءِ بِرحلتِهم عَبرَ الصَّحراءِ . لَمْ يَكنْ لَديهِم خِيارٌ آخرُ لأنَّ جِمالَهم وماعِزَهم باتَت تُعاني مِنَ الجُوعِ .

خِلالَ سَنواتٍ كَثيرةٍ تَلَت أُجبِرَتِ الشَّابَّةُ التي تُدعى فاطِمةَ على تَذَكُّرِ الصُّراخِ المَبحوحِ لذلكَ الغُرابِ في ذلكَ الصَّباحِ الباكِرِ .

كانَ علينا أنْ نَستمِعَ إلى ذلكَ التَّحذيرِ ، فَكَّرتُ مِرارًا .

كانَ عَلينا أن نَمتَنِعَ عنِ الرَّحيلِ .

لكنّ فاطِمةَ لَمْ تُدرِكْ في ذلكَ الصَّباحِ ، أنّ ذلكَ اليَومَ سيُصبحُ اليَوْمَ الأكْثَرَ شُؤمًا في حَياتِها بأكْمَلِها . حِينَها ، عِندَما باشَروا رِحلَتَهم ، كانَت لا تزالُ أُمًا سَعِيدةً ، وكانَت صَغِيرةً جِدًّا في السِّنِّ ، بل لَمْ تَكُنْ أكْثَرَ مِنَ طِفلةٍ هي أيضًا . عِندَما بدأت تِلكَ المَجموعةُ مِنَ النّاسِ والجِمالِ والماعِزِ بالسَّيرِ على طَرِيقِ رِحلتِها بِبُطءٍ ، كانَت هي تَجلسُ على ظَهرِ جَمَلِها الذي

كانَ يُؤَرجِحُها بِرِفقٍ هي وطِفلَها الذي كانَ لا يَزيدُ عُمرُه على السَّنتينِ وكانَ يجلسُ في حِضنِها .

عانَقَتهُ

شَمَّتْ رائحةَ شَعْرِه .

غَنَّت له .

لم تَكُن تُغنِّي لَهُ قَصائدَ شِعريّةً بل كلماتٍ مَليئةً بِالفَرَحِ كانَت تَفورُ مِنَ داخِلِها فكانَت تُتَمتِمُها في شَعرِه ذِي الرّائحةِ الزَّكِيّةِ .

أنتَ ابني الأوَّلُ ،

أنتَ ابني الوَحيدُ .

اسمُكَ هو هَدارةُ

أنتَ تَملَؤُني بِسعادةٍ كَبيرةٍ

واسِعةٍ كهذه الصَّحراءِ .

جِمالُنا باتَتْ نَحِيلةً ،

لَم يَعُدْ هُناكَ عُشبٌ تَرعاه .

لذَلِكَ نَبحَثُ الآنَ عن مَكانٍ

فيهِ ماءٌ

وكثِيرٌ مِنَ الأوراقِ الخَضراءِ .

هَدّارةُ ، يا طِفلي الوَحِيدَ ،

أنتَ جَمِيلٌ

كَنُجومِ الصَّحراءِ كُلِّها . . .

الجَمَلُ الذي رَكِبَتْهُ فاطِمةُ سارَ في مُؤخِّرةِ القافِلةِ . كانَت مَشغُولةً جِدًّ

بأغنِيَتِها إلى دَرَجةٍ مَنَعَتها مِنَ مُلاحَظةِ أنَّ جَمَلَها كانَ مُتأخِّرًا جِدًّا عن الآخَرينَ . لَفَتَ نَظَرَها لَمَعانٌ أبيضُ في الرَّملِ جَعلَها تَستيقظُ مِن حُلمِها وتَتوقَّفُ عن الغِناءِ لتُمعِنَ النَّظَرَ . ما رأتهُ هُناكَ جَعلَها تُشِعُّ فَرَحًا وسَعادةً . فقد رَأت حُفرةً في الرَّمْلِ مَليئةً بِبيضاتٍ كَبيرةٍ ، بَيْضاءِ اللّونِ مائلةٍ إلى الصَّفارِ ، لامِعةٍ .

– تَوقَّفُوا! انتَظِروا! لقد وَجَدْتُ عُشَّ نَعامٍ ، صَرَخَت مُنادِيةً على الآخَرينَ .

لكنَّ الآخَرينَ لَمْ يَسمَعُوا نِداءَها .

كانَتِ البيضاتُ تَلمَعُ في الشَّمسِ . كانَت عِبارةً عن طَعامٍ يَكفِي لإشباعِ الجَميعِ لِعدَّةِ أيّامٍ مُقبِلةٍ . شَدَّت فاطِمةُ لِجامَ جَمَلِها وجَعَلَتْهُ يَتوقَّفُ ويَبرُكُ على الأرضِ . قَفَزَت مِن فَوقِ ظَهرِ الجَمَلِ ووَضَعَت طِفْلَها إلى جانِبِ العُشِّ . كانَت ما تَزالُ في غايةِ السَّعادةِ . أرادَت أنْ تَلُمَّ البَيضاتِ لتُفاجِئَ بها الآخَرينَ . لكنْ في اللَّحظَةِ التي انحَنَت بها لِتلتَقِطَ إحداها وَقَعَت أَوَّلُ حادثةٍ مَشؤومةٍ مِن حَوادثِ ذلكَ اليَومِ المَشؤومِ .

فقد رَكَضَ جَمَلُها حتى اخْتَفى وَراءَ أَوَّلِ كَثيبٍ رَمْلِيٍّ كَوّنَتهُ الرِّيحُ .

– ابْقَ هنا ، قالَت فاطِمةُ لِطفلِها ، لا تَخَفْ ، سأَلحَقُ بِالجَمَلِ لأُمْسِكَ به وأعودَ به إلى هنا .

وهَكذا رَكَضت فاطِمةُ باتِّجاهِ الكَثيبِ الرَّمْليِّ . ابنُها هَدارةُ الّذي لَمْ يكنْ عُمرُه يزيدُ عنِ السنتينِ لَوَّحَ بِيدَيه تِجاهَ أمِّهِ التي كانَت تَركُضُ بِسُرعَةٍ جَعلَت ثَوبَها القاتِمَ اللَّونِ يَتطايرُ مِن حَولِها .

عِندَما باشَرَت فاطِمةُ بالرَّكْضِ كانَ الهَواءُ ساكِنًا ، لكنّ الرِّيحَ كانَت

قد حَبَسَت أنفاسَها وحَسْبُ . ففي اللّحظةِ التّاليةِ هَبَّت مُقتحِمةً الصَّحراءَ بِزئيرٍ غاضِبٍ .

كانَت تِلكَ هي العاصفةَ الرَّمليّةَ الأولى التي تَهُبُّ هَذا العامِ .

قامَت العاصِفةُ بِجمعِ غُيومٍ رَمليّةٍ وَرَمَت بها تِجاهَها . لَمْ تتمكَّنْ فاطمةُ مِن رؤيةِ شَيءٍ بِسببِ الرَّملِ الذي كانَ يَملأُ الهَواءَ مِن حَولِها . لَمْ يَكنْ بِوُسعِها سوى أن تختَبِئَ تحتَ قِماشِ الثَّوبِ الأَسْوَدِ الذي غَطَّت به وَجهَها وشَدَّتهُ بِيدَيها حَولَ جِسمِها . رغمَ ذلكَ تَسرَّبَ الرَّملُ في كُلِّ مَكانٍ مما أجبَرَها على إغلاقِ فَمِها وعَينَيها .

هدارةُ ، وَلَدي ، ماذا جَرى لكَ الآنَ؟ إنَّهُ السؤالُ الوَحيدُ الذي كانَ يشغَلُ بالَ فاطمةَ . هَدارةُ ، يا طِفليَ الصّغيرَ ، هَدارةُ ، وَلَدي . . .

حاوَلَت أن تَقِفَ وتسيرَ عائدةً إلى طفلِها لكنّ الرِّيحَ رَمَتها أرضًا . حَاوَلَت مَرّاتٍ عَديدةً لكنّ العاصِفةَ والرَّمالَ التي كانَت تضرِبُها كالسَّوطِ مَنعاها مِنَ الاستِمرارِ .

شَعَرَت كأنَّ تِلكَ العاصفةَ الرَّمليّةَ دامَت دَهرًا . فيما بَعد ، عِندَما كانَت تَتحدَّثُ عمّا جَرَى خِلالَ هذا اليَومِ التَّعيسِ ، كانَت تَقُولُ إنَّ تِلكَ العاصفةَ كانَت أفظَعَ عاصِفةٍ رَمليّةٍ مَرَّت بها ، وإنَّها استمرَّت لمدةِ سَبعةِ أَيّامٍ وسَبعِ لَيالٍ . وكانَت دائما تَقُولُ إنَّها لَمْ تَشعُرْ أبدًا ، لا قبلُ ولا بعدُ بذلِكَ اليأسِ الذي شَعَرَت به عِندَها . حينَ هَدأَتِ العاصِفةُ في نِهايةِ المَطافِ ، وحِينَ أزالَت فاطِمةُ قُماشَ الثَّوبِ عَن رأسِها ونَظَرَت حَولَها ، لَمْ تَتعرَّفْ إلى مَعالِمِ المَكانِ مِن حَولِها .

كُلُّ ما هُناكَ كانَ قد تغيَّرَ مَظهرُه .

فقدِ انتقَلَت الكُثبانُ مِن مَكانِها وصارَت للرَّملِ أشكالٌ جَديدةٌ .
لم يَكنْ هُناكَ أيُّ أثرٍ للصَّبيّ .
أطلقَت حِينَها فاطمةُ صَرخةً مِن أعماقِها .

عِندَما وجدَها الآخَـرونَ كانَت تَركضُ في حَلَقاتٍ حَولَ نَفسِها صارِخةً :
– لقد ضاعَ هَدّارةُ! وَضَعتُهُ قُربَ بَعضِ بَيضاتِ النَّعامِ . والآنَ لا يُمكنُني العُثورُ عليه!
بَكَت وحَفَرَت بيدَيها في كُلِّ الكُثبانِ التي رأتها .
بَحثوا عنِ الطِّفْلِ أيامًا عَديدةً . لَمْ يُغادِروا المَكانَ إلّا بعدَما نَفِدَ المَاءُ الذي كانوا يَحمِلونه مَعَهم .
لم يَتمكَّنوا مِنَ العُثورِ لا على الطِّفلِ ولا على بَيضاتِ النَّعامِ .

الفصلُ الثاني

مَدفُونٌ في الرِّمالِ

عادَت النَّعامةُ التي تُدعى ماكو إلى عُشِّ بَيْضِها ورَأتْ الطِّفْلَ البَشَريَّ الذي كانَ يَجلِسُ هُناك ، صَبِيٌّ صَغِيرٌ بَدينٌ ، ذُو شَعرٍ أَسْوَدَ ناعِمٍ وأنفٍ غَريبِ الشَّكلِ . لَمْ يَكنْ يَرتدي سِوى قَميصٍ أَسْوَدَ قَصيرٍ . كانَت النَّعامةُ قد شَعَرَت بِالخَطَرِ القادِمِ . كَما أحَسَّ الجَمَلُ بأنَّ عاصِفةً رَمليّةً كانَت في طَرِيقِها إلى ذلكَ المَكانِ ، ولذَلِكَ عادَ باحِثًا عن مَكانٍ يَحميه مِنَ الخَطَرِ ، كذَلِكَ شَعَرَت النَّعامةُ بما كانَ على وَشكِ الحُدوثِ . رأت ماكو الطِّفلَ البَشَريَّ وفَكَّرَت بأنّه بحاجةٍ إلى مَن يحميه . تَصرَّفَت بالضّبطِ كَما كانَت ستتصرَّفُ لو كانَ لديها صِغارٌ خَرجوا لِتَوِّهم مِنَ البَيضِ . فقد فَرَدَت جناحَيها وجَلَسَت فَوْقَ الطِّفلِ لتُغطِّيَه .

بعدَ فَتْرَةٍ وَجيزةٍ أتى زَوجُها الذي يُدعى حوج .

جلسَ طائرُ النّعامِ بجانبِ أنثاهُ وفَرَدَ أَجْنِحَتَهُ الأكبَرَ حجمًا فَوْقَها وفَوْقَ الطِّفلِ .

عِندَما وَصَلت العاصفةُ القاسيةُ إليهم مَدَّ طائرا النَّعامِ عُنُقَيهِما بُمحاذاةِ الأرضِ . كادَت الرِّيحُ أن تقتلعَهم مِن مَكانِهم وانتَشَرَ الرَّمْلُ الهائجُ فَوْقَهم

حتّى غَطّى ثلاثَتَهُم وكأنّه غِطاءٌ سَميكٌ .

لن يَذكُرَ الصّبِيُّ أيًّا مِن هذه الأحداثِ في المُستقبَلِ .

ولن يخبِرَه والداه بالتّبني ، أيْ طائِرا النَّعامِ بأيٍّ منها لاحقًا .

عِندَما هدأت الرِّيحُ حَفَرَ طائرا النَّعامِ لِنفسيهما طَريقًا مِن تَحتِ الطَّبقةِ الرَّمْلِيةِ التي كانَت قد غَطّتهُما معًا ، مَدّا عنقَيهما وهزّا أَجْنِحتِهما ونَظَرَا بِقلقٍ إلى الصّبِيِّ . كانَ يجلسُ هُناك باكيًا . حزَّ بُكاؤُه في نفسِ النَّعامةِ ماكو لأنَّ أطفالَها لَمْ يعرفوا البُكاءَ أبدًا . لَمْ تَكُنْ تَعلمُ ماذا ستفعلُ لتُسكِتَه ، لكنّها لَكزَتهُ بِمنقارِها وجعلَتهُ يَقِفُ على ساقَيه . وَقَفَ الصّبِيُّ واهِنًا ، وحِينَ سارَت لَم يتبعْها كَما يفعلُ أيُّ فَرخِ نعامٍ . لذلكَ قالَت لِزَوجِها إنَّ عَلَيهِ أن يتمدَّدَ على الأرضِ . دَفَعَت بَعدَها بالطِّفلِ تِجاهَ زَوجها . بطَريقةٍ أو بأخرى نجحَت في دَفعِ الصّبِيِّ إلى فَوقِ ظهرِ ذَكَرِ النَّعامِ . كانَ الصَّبِيُّ على قَدْرٍ كافٍ مِنَ الذَّكاءِ جَعَلَهُ يُمسِكُ بريشِ الذَّكَرِ عِندَما قامَ هذا مِنَ مَكانِه ، ولذلكَ بَقِيَ الصَّبِيُّ مُعلَّقًا فَوْقَ ظَهرِه .

بَدأَ ذَكَرُ وأُنْثَى النَّعامِ بالسَّيرِ بَطيئًا تارِكَينَ ذلكَ الكَثيبَ بمتاعِهما العَجيبِ . كانا يعلمانِ أَنَّ هُناكَ صَخرةً ضَخمةً على بُعدِ مَسافةٍ مِن هُناك . كانَت تِلكَ الصَّخرةُ هي الهَدَفَ الذي سارا باتِّجاهِه . كانا مُتشنِّجَينِ وقَلِقَينِ .

هل سَيصِلانِ إلى الصَّخرةِ في الوَقتِ المُلائم يا تُرى؟ كانا يَعلمانَ أنَّ العاصفةَ قد هَدأَت لِفترةٍ قَصيرةٍ فقطْ لِتَلتَقِطَ أنفاسَها ، وأنّها ستَنقَضُّ عليهِما ثانِيةً في وَقتٍ قَريبٍ .

وَصلا بعدَ بُرهةٍ إلى الصَّخرةِ السَّوداءِ التي كانا قد احتمَيا بها مِرارًا في السّابقِ . كانَت قِطعةٌ مِنَ الصَّخرةِ قد أفلَتَت مِن مَكانِها ، وها هي الآنَ تقفُ مائلةً تجاهَ السُّورِ الصَّخريِّ للجَبلِ مُشكِّلةً مَغارةً صَغيرةً . وَصَلا إلى فَتحةِ المَغارةِ في اللَّحظَةِ التي انقضّت فيها العاصِفةُ على الصّحراءِ عاويةً مِن جَديدٍ . تمدَّدَ ذَكرُ النَّعامِ على الأرضِ مرّةً أخرى وأنزلَ الصَّبيَّ عن ظهرِه إلى الأرضِ داخِلَ المغارةِ التي قدّمَت قَدْرًا لا بأسَ به مِنَ الحِماية . فلا الرِّيحُ ولا الرَّمْلُ المتطايرُ كانا يَصلانِ إلى داخِلِ المَغارَةِ .

– ما علينا سِوى أن نَنسى عُشَّ البَيضِ ذاك ، قالَت ماكو لِزوجِها حوج . حينَ تَعصِفُ الرِّيحُ هكذا ينتقلُ الرَّمْلُ مِنَ مَكانٍ إلى آخرَ . لن نَجدَ العُشَّ مَهما بَحثْنا عن مَكانِه .

– أجلْ ، أعلمُ ذلك ، قالَ زوجُها حوج . يجبُ أن نَضَعَ بَيْضًا مِنَ جَديدٍ .

– لكنْ ، ماذا سنَفعلُ بهذا؟ قالَت النَّعامةُ . بهذا الطِّفلِ . يبدو بائسًا لا عونَ له . أخشى أن يُباشِرَ البُكاءَ مُجدَّدًا .

الحقيقةُ هي أنَّ طُيورَ النَّعامِ خَرساءَ . فهي تفتقدُ للأوتارِ الصَّوتيّةِ ولا يُمكِنُها إصدارُ الأصواتِ . لذلكَ نجدُ أنَّ المُحادثاتِ التي تدُورُ بينَ ماكو وحوج هي أحاديثُ صامتةٌ لأنَّ أفكارَهما تَنتقِلُ بَينَهما مِنَ الواحدِ إلى الآخَرِ .

لم تَكدْ النَّعامةُ تنتهي مِن جُملةِ «أخشى أنْ يُباشِرَ البُكاءَ مُجدَّدًا» حتّى أجهشَ الصَّبيُّ بالبُكاءِ . نَظَرَ طائرا النَّعامِ بحِيرَةٍ كُلٌّ مِنهما باتِّجاهِ الآخَرِ . بُكاءُ الأطفالِ كانَ أمرًا لا خِبرةَ لهما به على الإطلاقِ .

فَجْأةً صَمَتَ الطِّفلُ . كانَ يحدِّقُ إلى شيءٍ تَحرَّكَ على الأرضِ . كانَ شَيْئًا طُولُه حوالَي العَشرةِ سنتيمترات وكانَ يَتَحَرَّكُ باتِّجاهِه .

كانَ ذلكَ الشَّيْءُ عَقْرَبًا أزْعَجَتهُ تِلكَ الزِّيارَةُ المُفاجِئةُ لِمَغارتِه . وكانَ العَقرَبُ يَزْحَفُ الآنَ باتّجاهِ الصَّبيِّ . ضَحِكَ الصّبيُّ لأنّهُ وَجَدَ أنَّ الحَيَوانَ الذي كانَ يَزحفُ باتِّجاهِهِ لَهُ شَكلٌ مُثيرٌ للضّحِكِ . مَدَّ يَدَهُ المُكتنِزةَ نَحْوَ العَقْرَبِ . رَفَعَ العَقْرَبُ ذيلَه المزوّدَ بزبانى سامّةٍ بسُرعَةِ البرقِ لِيلدَغَه . لكن أُنْثَى النَّعامِ كانَت أسْرَعَ فوجَّهَت ضَربةً قاضِية للعَقْرَبِ بِمنقارِها الضَّخم .

أمسَكَ الصّبيُّ بالعَقرَبِ المَيِّتِ ووَضَعَهُ في فَمِه .

هذا الحَدَثُ هو أوَّلُ الأحداثِ التي بَقِيت في ذاكِرةِ الصَّبيّ .

سَوفَ يَتذكَّرُ في المُسْتَقْبَلِ مَغارةً وحَيَوانًا مُضحِكًا زَحَفَ نَحوَه . وفي وقتٍ لاحِقٍ سيتعرَّفُ إلى ثَمانيةِ أنواعٍ مِنَ العقارِبِ التي تَحمِلُ في مُؤخِّرةِ ذَنَبِها أنواعًا قاتِلةً مِنَ السُّمومِ ، وذلكَ ليتعاملَ مَعَها بِحَذَرٍ . لكنَّ ذِكرى الطُّفولةِ تِلكَ كانَت خاليةً مِنَ الذُّعرِ ، مَليئةً بِالبَهجةِ . كانَ الحَيَوانُ مُضحِكًا . قَتَلَتهُ أمُّهُ النَّعامةُ وأكلَهُ هو . كانَ طَعمُهُ لَذيذًا .

كانَت ذِكرى أولى سَعيدةً .

دامَت العاصِفةُ وَقتًا طَويلاً وقَطَعَ طائرا النَّعامِ الأملَ بإيجادِ عُشِّهما والبَيضِ الذي كانَ فيه . بَدَلًا مِنَ التَّحسُّرِ على ما كانَ راحا يَعتنيانِ بالطِّفلِ الذي وَجَداه . كانَت خَنافسُ سَوداءُ اللَّونِ تَزحَفُ مِن مَخابِئها تَحْتَ الرَّملِ في أثناءِ اللَّيلِ فيقتُلُها طائرا النَّعامِ ويرميانِها للصَّبيِّ . أسعَدَهُما اكتشافُ

الأسنانِ المَتينةِ في فَمِ الصَّبيِّ التي مَكَّنتهُ مِنَ المَضغِ جيّدًا . وكانا يَحفرانِ في الرَّملِ الذي تَجمَّعَ عندَ مَدخَلِ المَغارةِ ويجدانِ يرقاتٍ زهريّةَ اللَّونِ كانَ يدفعُ كلٌّ منهما بها بِمنقارِه نَحوَ الصَّبيِّ ، كانَ يأكلُها أيضًا . لكنّ اليرقاتِ كانَت تزحَفُ فَوْقَ لِسانِه وتَجعلُه يَضحَكُ قَبلَ أنْ يَتمكّنَ مِنَ ابتلاعِها .

وفي تِلكَ المغارةِ تَعلَّمتِ النَّعامةُ الأمُّ الفَرقَ بينَ صِغارِ النَّعامِ وصِغارِ البَشَرِ ، وهو أنّ صِغارَ البَشَرِ يَضحَكُونَ . كانَت تَفرَحُ كَثيرًا عِندَما كانَت تَستمِعُ إلى ضحكةِ وَلَدِها الصّغيرِ . وكانَت تُومِئُ بِفَرَحٍ إلى زَوجِها كُلّما رأتِ الصَّبيَّ يأكُلُ طَعامَه . كانَت كَكُلِّ أمٍّ تحبُّ أن تَرى طِفلَها وهو يأكُلُ .

وفي الخارِجِ لَم تتوقَّفِ العاصفةُ عنِ التّداعِي فَوْقَ الصَّحراءِ .

الفصلُ الثالثُ

حِينَ طَلَبَت أمُّ هَدارةَ من راعي الجِمالِ دَولةَ أنْ يطلبَ العَونَ مِنَ اللّٰهِ

كانَت فاطمةُ تَركبُ جَمَلها في مُؤخِّرةِ القافِلةِ . لكن لَمْ يَعُدْ لديها صَبِيٌّ صَغِيرٌ تَحضنُهُ بَينَ ذِراعَيها . بَكَت . لماذا عاقبَها اللهُ بهذه الطَّريقةِ؟ لكنْ بالرّغم مِن أنَّهُ قد مَضَت عَشرةُ أيّامٍ على اختفاءِ هَدارةَ ، وبالرُّغم مِن أنَّ كلَّ أفرادِ عائلتِها قالوا لها إنَّ عليها أن تُدرِكَ أنَّ وَلَدَها هَدارةَ ، طِفلَها الصَّغيرَ ، قد ماتَ إلّا أنَّها رَفَضَت أن تُصدِّقَ ذلك . كانَت تَتَلفَّتُ حَولَها طَوالَ الوَقتِ بينَما كانَ جَمَلُها يَتَحَرَّكُ بِبُطءٍ إلى الأمامِ ، خَلفَ الآخَرينَ . كانَت تنظرُ لِتَرى ما إذا كانَ هَدارةُ سَيَظهَرُ للعَيانِ في مَكانٍ ما ، خَلْفَ صَخرةٍ أو خَلفَ شَجَرةٍ أكاسيا . كانَت تَعلمُ أنَّ ذلكَ الأمرَ كانَ مُستحِيلًا لكنَّها لَمْ تَتمكَّنْ مِنَ الامتناعِ عن النَّظَر ، وعن الأمَل .

تَوقَّفوا عندَ بئرٍ لِتشرَبَ جِمالُهم وماعِزُهم ولِيروُوا عَطَشهم هُم أيضًا . نَصَبوا خِيامَهم وقَرَّروا البَقاءَ في ذلكَ المَكانِ ؛ لأنّهُ كانَ فِيهِ ما يكفي مِنَ العُشبِ لِتَرعى قُطعانُهم . عِندَما وَصَلَت مَجموعةٌ مِنَ بَدوِ الصَّحراءِ إلى

البئرِ ذاتِها امتلأت نَفْسُ فاطمةَ بالأملِ . الرّجُلُ الذي قادَ تِلكَ المَجمُوعةَ مِنَ النّاسِ وقَطيعَ جِمالِهم الضَّخمَ ، كانَ يُدعَى دَولةَ ، وهوَ رَجُلٌ مَشهورٌ جِدًّا في هذا الجُزءِ مِنَ الصَّحراءِ . كانَ مَشهورًا لأنّهُ لَمْ يكدْ يوجدُ شَخصٌ آخرُ يُلِمُّ بذاتِ القَدْرِ مِنَ المَعرفةِ التي كانَ دَولةُ يُلِمُّ بها عن الجِمالِ . لَكِنَّهُ كانَ مُشهورًا وحائزًا على التَّقديرِ لِسَبَبٍ مُختلِفٍ تَمامًا ، وهوَ صَلواتُ أيّامِ الجُمعةِ . كانَ البدوُ الرُّحَّلُ كُلُّهم في هذا الجزءِ مِنَ الصَّحراءِ يعتقدونَ أنَّ دَولةَ كانَ يَتَمتَّعُ بِصِلةٍ خاصّةٍ مَعَ اللّهِ . كانَ النّاسُ يَتجمَّعونَ حَوْلَهُ كُلَّ يَومِ جُمعةٍ لِيستمِعوا إلى صَلواتِه وتراتيلِه التي كانَ يُوجِّهُها إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ .

وَجَدَتْهُ فاطِمةُ واقِفًا في وَسَطِ قَطيعِ جِمالِه . كانَ دَولةُ رَجُلاً زِنجِيًّا طَويلَ القامةِ ، ذا يَدينِ هائلتَي الحَجمِ .

– لا يَعرِفُ زَوجي وأفْرادُ عائلتي الآخَرونَ أنَّني أتيتُ إليكَ ، قالَت فاطِمةُ . فَهُم يقولونَ إنَّهُ لن يُفيدَ التَّوسُّلُ إلى اللّهِ لكي يَرُدَّ لنا وَلدَنا . يقولونَ إنَّهُ لا يُوجدُ هُناك ذَرَّةُ أمَلٍ .

– اللّهُ رَحمنٌ رَحيمٌ قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ ، قالَ دَولةُ وتحَسَّسَ مقدّمةَ رأسِ أحَدِ جِمالِه .

عِندَما سَمِعَت فاطمةُ كَلِماتِه هذه تَجَرّأت وطَلَبَت مِن دَولةَ أن يتوسَّلَ إلى اللّهِ في ذلكَ المَساءِ وأنْ يسألَهُ حِفظَ حَياةِ وَلدِها . كانَ وَجهُ دَولةَ مُلثَّمًا بِقطعةِ قُماشٍ بَيضاءَ ولم يَظهرْ مِن وَجهِه للعَيانِ سِوى العَينينِ والأنفِ الضَّخمِ . رأت فاطمةُ الدِّفءَ واللُّطفَ يُشِعّانِ مِن ذلكَ الوَجهِ . نَظَرَ إليها وقالَ بِصوتِهِ العَميقِ :

– تعالَي إليَّ في المَساءِ . سأتوجّهُ اللَّيلةَ بدُعائي إلى اللّهِ .

عِندَما هَبطَ اللَّيلُ كغِطاءٍ أَسودَ فَوقَ الصَّحراءِ ، تَجمَّعَ البَدوُ الذين كانوا قد نَصبُوا خِيامَهَم بالقُرْبِ مِنَ البِئرِ . أحضرَ كُلٌّ مِنهم شُجيراتٍ جافّةً وأغصانًا مَيتةً وجَعلوا مِنها كَومةً ضَخمةً . عِندَما أُشعِلَتِ النارُ نَهَضَ دَولةُ مِن مَكانِه . وَجَّهَ وَجهَهُ نَحْوَ السَّماءِ ورَفَعَ ذِراعيه إلى أعلى . راحَ يَقرأُ بِصوتِه القَوِيِّ :

«بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

سبّحَ للّهِ ما في السّمواتِ والأرضِ وهوَ العزيزُ الحكيم . له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ يُحيي ويُميتُ وهوَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ . هو الأوَّلُ والآخِرُ والظّاهِرُ والباطِنُ وهوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ . هو الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتّةِ أَيّامٍ ثمّ استَوى على العَرْشِ يَعلمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها وما يَنزِلُ مِنَ السماءِ وما يَعرُجُ فيها وهو مَعكُم أينَ ما كُنتم واللّهُ بما تَعملونَ بَصيرٌ .

صدقَ اللّهُ العظيمُ»

كانَت والدةُ الصَّبيِّ المَفقودِ الذي يُدعى هَدارةَ جالسةً على الأرضِ ، يحيط بها أفْرادُ عائلتِها . كانَت قد تَدَبَّرَتِ الأمرَ ، واختارَت مَكانًا لَها في المُقدِّمةِ ، بالقُربِ مِنَ النّارِ والرّجُلِ المُتَوسِّلِ إلى اللّهِ . كانَت تَستمعُ بِشَغَفٍ لِكُلِّ كَلمةٍ يَقُولها .

قامَ دَولةُ بِالصّلاةِ ثمّ وَجَّهَ دُعاءَه إلى اللّهِ . كانَ العَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِن

وَجهِه . كانَ يبدو كأَنَّهُ وَقَعَ في غَشيةٍ ، وأدرَكَت فاطمةُ أنَّهُ كانَ يُرَدِّدُ آياتٍ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ . لَكِنَّهُ نَطَقَ في النِّهايةِ بِالكلماتِ التي كانَت تَنتظِرُها وتأمَلُ بِها . قالَ دَولةُ فيما كانَت عَيناه تُحدِّقُ إلى السَّماءِ المَليئةِ بِالنُّجومِ :

– يا رَبِّي ، يا اللّهُ يا حَبيبي ، أطلبُ إليكَ وبِكُلِّ أسمائِكَ الحُسنى ، وأتوسَّلُ إليكَ يا قادِرُ على كُلِّ شَيءٍ أن تُعينَ والِدَتَهُ على إيجادِ وَلَدِها المَفقُودِ .

تابعَ دَولة صَلاتَه ، ساعةً بعدَ ساعةٍ . كانَ يتوقَّفُ عنِ الصلاةِ بينَ فَتْرَةٍ وأخرى ليتضرّعَ إلى اللّهِ .

وفاطمةُ يَحْدوها الأملُ في أن يستجيبَ اللّهُ لصلواتِهم ودُعائِهم وتَعثرَ على ابنِها على قيدِ الحَياةِ ، لكنَّ زوجَها همَسَ في أذنِها

–عَليكِ أن تفهَمِي أنَّ وَلَدَنا قد ماتَ . عَليكِ أن تَكُفِّي عنِ الأملِ . عَليكِ أن تَكُفِّي عنِ الحُزنِ . لا يُمكِنُ لِطفلٍ أن ينجُوَ مِن عاصِفةٍ رَمليّةٍ كتلك ، خاصّةً أنّ عُمرَه لا يَزيدُ عنِ السّنتَين .

الفصلُ الرابعُ

في مُواجَهةِ المَوتِ

انضَمّت ثلاثُ نَعاماتٍ شابّاتٍ إلى السِّربِ الذي كانَ يتألَّفُ مِنَ الزَّوجينِ والطِّفلِ البَشَريّ . أرادَت كُلٌّ مِنهُنَّ أنْ تَبيضَ لكنَّهُنَّ انتظَرْنَ الوُصُولَ إلى مَكانٍ آخرَ . لَمْ يَكُنْ لأيٍّ مِنهُنَّ رَغْبَةٌ بِبناءِ عُشٍّ في ذلكَ المَكانِ الذي اخْتَفى فِيهِ بَيْضُ النَّعامِ تَحْتَ تَلٍّ مِنَ الرَّمْلِ .

تَنقَّلوا خِلالَ اللَّيلِ . صَعِدَ البَدَرُ بِبُطءٍ في سَماءِ الصَّحراءِ حينَ بَدأوا مَسيرَتهُم بَحثًا عن مَكانٍ جَديدٍ يَبنونَ فِيهِ أعشاشًا جَديدةً يَبيضون فيها . تَمكَّنَت ماكو مُجدَّدًا مِن وَضعِ الصَّبيِّ على ظَهرِ الذّكرِ حوج . تَمدَّدَ الوَلَدُ على بَطنِه مُمسِكًا بِريشِ الجَناحينِ الغَزيرِ . ساروا في صَفٍّ مُستقيمٍ طَويلٍ . كانَ حوجٌ يَسيرُ في المُقدِّمةِ حامِلاً الصَّبيَّ فَوْقَ ظَهرِه وخَلْفَهُ سارَت ماكو . خَلْفَ حوجٍ وماكو سارَت الإناثُ الثّاباتُ الثّلاثُ .

ساروا على الحافّةِ العُليا لكَثيبٍ رَمليّ . رأوا في البَعيدِ ألسنةَ لَهيبِ نارٍ ومعَ الرِّيحِ الخَفيفةِ وَصَلَت إليهم رائحةُ البَشَرِ والجِمالِ سَمِعوا أغانيَ وصَفيقَ أيدٍ مُنتَظِمِ الإيقاعِ ، دُونَ أنْ يعلمُوا ما الذي كانوا يسمعُونه . انتَشَرَ الذُّعرُ بَينَهم . أسْرَعَ حوجٌ خُطاه حتّى يَبتَعدَ عن بَنِي آدمَ . أفلَتَ

الوَلَدُ عِندَها قبضَتَيه ، وَقَعَ على الأرضِ وَراحَ يَصرُخُ .

– هذا لن يَنفَعَ أبدًا . هذا الوَلَدُ حالةٌ مَيئوسٌ مِنها . إنَّهُ لا يُحسِنُ القِيامَ بأيِّ شَيءٍ . لا يقدرُ على المَشيِ ولا على الرَّكضِ . فَرخُ نَعامٍ في هذه السِّنِّ يُجيدُ السَّيرَ ، والرَّكضَ وإيجادَ طَعامِه بِنفسِه . هذا وَلَدٌ مُتَخَلِّفٌ . لا بُدَّ أنَّهُ يعاني مِن عِلَّةٍ خَطيرةٍ .

– اصمُتِ الآن ، قالَت ماكو بِحَزم . اُرقُدْ هنا .

وهكذا دَفَعَت هَدارةُ بِحنانٍ إلى ذَكَرِ النَّعامِ الرّاقدِ وجَعلَتهُ يتَسَلّقُ إلى أعلى ظهرِه ويتمسَّكُ بريشِهِ بِقُوّةٍ .

تابَعُوا مَسيرَتهُم في صَفٍّ مُستقيم . كانَ حوجُ يتذمَّرُ بلا انقطاعٍ لكنَّ ماكو لَمْ تَكترِثْ لِلأمرِ . فقد حَصَلَت على طِفلٍ جَديدٍ وكانَت مُصَمِّمَةً على الاحتفاظِ به .

عِندَما ابتعَدوا عنِ البَشَرِ والجِمالِ بما فِيهِ الكِفايةُ تَمَدَّدُوا على الرَّملِ لينامُوا .

تَمَدَّدَت ماكو فَوقَ الطِّفلِ إذ إنَّ هذا صارَ أمرًا تعَوّدَته . صارَ لهَدارةَ تَحتَ رِيشِها النّاعِمِ سَريرٌ دافِئٌ مُريحٌ ، ولذَلِكَ استغرَقَ في النَّومِ بِسُرعَةٍ .

عِندَما استيقَظَ الجَميعُ عندَ الفجرِ حَاوَلَت ماكو أن تُعلِّمَهُ الكَلامَ بِواسِطةِ الأفكارِ .

– اسمي ماكو . أنا أمُّك ، قالَت له .

لم تَحصُلْ على جَوابٍ مِنه . هل كانَ عاجزًا عنِ الحديثِ بِواسِطةِ الأفكارِ؟ ماذا لو كانَ مُتَخَلِّفاً بالفِعلِ؟

كانَت الإناثُ الثّلاثُ الشّاباتُ تَزدادُ فُضوليَّةً وتَوَدُّ مَعرِفةَ المَزيدِ عن

الطِّفل . إذ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُشبِهُ شَيْئًا أو أحَدًا رأيْنَهُ مِن قَبلُ . كُنَّ يَتَقَدَّمنَ مِنهُ و يَتجمَّعنَ حَولَه . كُنَّ فُضوليّاتٍ كَكُلِّ طُيورِ النَّعام ، وحاوَلَت كُلٌّ مِنهُنَّ التَّعرُّفَ إليهِ عَن قُربٍ إذ تَعُضُّهُ وتقرُصُهُ بِحَذَرٍ بِمنقارِها . عَضَّتهُ إحداهُنَّ مِن أُذنِه والأخرى مِن يَدَيهِ الصَّغيرتينِ . حالما فَعَلْنَ ذلكَ كانَت شَفَةُ هَدارةَ السُّفلى تَتَقَوَّسُ ثمّ يباشِرُ بالبُكاءِ . كانَت ماكو تَشْعُرُ كأنَّ بُكاءَه سِكِّينٌ يَقطَعُ في جَسَدِها لذلكَ وَبَّخَت زَوجَها والإناثَ الثّلاثَ .

– ألا تُلاحِظون أنّ الطِّفلَ يَخافُ؟ مَمنوعٌ على أيٍّ مِنكُنَّ أن يَقرُصَه . عليكم أن تفعَلوا مِثلي فَتداعِبونَه كُلٌّ بِمنقارِه . هو يُحِبُّ ذلك .

انحَنَت ماكو فَوقَه وتَحَسَّسَت ذِراعَهُ الصّغيرةَ المُكتنِزةَ بِمنقارِها بِلُطفٍ . تَوَقَّفَ الطِّفلُ عنِ البُكاءِ وابتسَمَ لها . سَوَّت بعدَ ذلكَ قَوامَها وبَدا عليها بِوُضُوحٍ أنّها كانَت راضيةً عن نَفسِها .

– هكذا سَتفعلون . ثمَّ ، أضافَت مُهدِّدَةً ، إذا رأيتُ أحَدًا مِنكُم يقرُصُه أو يَعُضُّهُ فَسأُعاقِبُه بِنفسِي .

تابعَ سَربُ النَّعامِ مَسيرَتهُ تارِكًا خَلْفَهُ الكُثبانَ الصّفراءَ ودَخَلَ في مِنطقةٍ مسطّحةٍ تَمامًا ، مغطّاةٍ برملٍ رماديِّ اللّونِ خشنِ الملمسِ وببَعضِ الأحجارِ السّوداءِ المرميّةِ هنا وهُناك .

كان الذكّرُ حوجُ يسيرُ موطَّدَ العزمِ ، إذ كانَ يبحثُ عن مَكانٍ يبني فِيهِ عُشَّه الجَديدَ يتوفّرُ فِيهِ ما يَكفي مِنَ الطّعامِ . كانوا يَسيرون بِبُطءٍ بسَبَبِ هَدارةَ .

لكن كُلّما حَاوَلَ حوجُ التَّذمُّر ، كانَت ماكو تُجيبُه :

– أنتَ تعلمُ قانونَ النَّعام جيّدًا . على السِّربِ أن يسيرَ بالسُّرعةِ التي تُناسِبُ أبطأَ عُضوٍ فيه . ألا تَرى أنّ الصَّبِيَّ يَسيرُ سيرًا أفضَلَ يَومًا بعدَ يَوم؟ لن يَحتاجَ إلى الرُّكوبِ على ظَهرِكَ قَريبًا بل سيتمكَّنُ مِنَ السَّيرِ بِنفسِه .

كانَ حوجُ يتظاهرُ بالمُوافقةِ على رأيِ زَوجَتِه . لَكِنَّهُ كانَ قد صَمَّمَ في قَرارةِ نَفسِهِ على التَّخلُّصِ مِنَ الصَّبِيِّ في أقربِ وَقتٍ مُمكِنٍ . ذلكَ الطِّفلِ البشريِّ . ذلكَ العبءِ الإضافِيِّ العديمِ الفائدةِ .

سَنَحَت له فُرصةٌ مُناسِبةٌ لذلكَ بعدَ بضعةِ أيّام . إذ ذَهَبَت الإناثُ لِلبحثِ عن أوراقٍ خَضراءَ صالحةٍ لِلأكلِ ومُحاولةِ إيجادِ غَديرٍ أو مُستنقَعٍ للشُّربِ . بقيَ حوجُ لِحراسةِ الطِّفلِ . كانَت ماكو قد طَلَبت مِنه أن يَلتقِطَ يَرَقاتٍ ويُقدِّمَها له ، لكنَّ حوجًا لَمْ يفعلْ ذلك .

تأخّرت الإناثُ وكانَت أشِعّةُ الشّمسِ تَنْصَبُّ عليهما بِقسوةٍ . كانَ يومًا مِنَ الأَيّامِ الصّافيةِ جِدًّا ، وبدأتِ الصّحراءُ تَعُجُّ بسَراباتٍ لامِعةٍ . كانَت الصّحراءُ مِن حَولِهم مُسطَّحةً ، لكنّ الأرضَ بَدَت فَجْأةً وكأنّها مُغطّاةٌ بِمياهٍ زَرقاءِ اللّونِ . لا بُدَّ أنَّهُ كانَ قد تبقَّت في ذِهنِ الطِّفلِ ذِكرياتٌ تَتعلَّقُ بِالينابيعِ والأغادير ؛ إذ إنَّهُ انتصَبَ واقِفًا حينَ رأى اللّونَ الأزرقَ اللاّمِعَ . كانَ عَطِشًا لِدرجةِ أنَّهُ صَعُبَ عَلَيهِ أن يبلَعَ رِيقَه . كانَ مُتشوِّقًا إلى ذلكَ الأزرقِ الفاتِحِ . وَقَفَ على ساقَيه وسارَ بِخُطًى قَصيرةٍ قَلِقةٍ باتِّجاهِها . غيرَ أنّها كانَت تَنتقِلُ مِنَ مَكانٍ إلى آخرَ طَوالَ الوَقتِ . كانَ السَّرابُ الأزرَقُ اللاّمِعُ يَسبِقُه دائمًا . جَعَلَهُ العَطَشُ يَمُصُّ إبهامَه .

اسْتَمَرَّ بالسَّيرِ بِخُطًى غَيرِ واثِقةٍ باتِّجاهِ ما كانَ يَجِبُ أن تكونَ مياهًا . بما أنّها اسْتَمَرَّت بالانتقالِ كلّما أرادَ الاقترابَ مِنها ، بدأ يَركضُ حتى يلحَقَ بها بسُرْعَةٍ .

وَقفَ حوجُ في مَكانِه مُحَدِّقًا .

رأى الطِّفلَ يُغادِرُ المَكانَ بِخُطًى غَيرِ واثِقةٍ .

رأى الطِّفلَ يرْكُضُ .

رأى الطِّفلَ يقعُ ويبقى مُمَدَّدًا في مَكانِه على الأرضِ . لا بُدَّ أنّ المَوتَ سيأتِيهِ قَريبًا . كانَ حوجُ مُقتنِعًا بذلك .

رَفَعَ الطِّفلُ نَظَرَه ورأى رَملاً رَماديَّ اللّونِ وسَماءً ساخِنةً كالجَمرِ . وَضَع إبهامَه في فَمِهِ مِنَ جَديدٍ ، وَراحَ يَمُصُّ بحدّةٍ ، لكنْ من دونِ فائدةٍ . كانَ عَطَشُه يَزدادُ طَوالَ الوَقتِ . أغْمَضَ عَينَيهِ وبَقِيَ مُمَدّدًا على الأرضِ دُونَ حَرَكَةٍ . لَمْ يَعُدْ يَقوى حتّى على مصِّ إبهامِه . لذلكَ لَمْ يرَ النَّسرَ الذي وَجَدَهُ فَريسةً ، فَراحَ يدورُ مُحَلِّقًا فَوْقَه . حَلَّقَ النَّسرُ وحَلَّقَ فَوقَ الطِّفلِ . كانَ الطائِرُ قد قَرّرَ الانتظارَ إلى ما بعدَ مَوتِ الفَريسةِ حتّى يَحُطَّ عِندَها ويُباشِرَ بالتهامِها .

رأى حوجُ الطِّفلَ مُستلقِيًا على الأرضِ بلا حَرَكَةٍ على الرّمالِ الرّماديّةِ اللَّونِ ، ورأى النَّسرَ الذي كانَ يُحلِّقُ فَوْقَه فأدارَ ظَهرَه وباشَرَ بالرَّكضِ تارِكًا المَكانَ بِخُطًى طَويلةٍ رَشيقةٍ .

شَعَرَ وكأنَّ حِملاً ثقيلًا رُفِعَ عن ظَهرِه . أخيرًا سيعُودُ كُلُّ شَيءٍ إلى ما كانَ عَلَيهِ في السّابِقِ .

الفصلُ الخامسُ

الأفْعى السّامَةُ

عادَت النَّعامةُ ماكو راكِضةً باتِّجاهِ المَكانِ الذي تَرَكَت فِيهِ حوجًا والصَّبِيَّ . فَكّرت بالاسم الذي ستُطلِقُه عَليه . كانَت قد فَعلَت ذلكَ منذُ أنْ وجدَتِ الطِّفلَ في الرَّمْلِ . فكّرَت بكَثِيرٍ مِنَ الأسماءِ ، لكنّها لَمْ تجدْ حتّى الآن اسمًا يَليقُ به .

لا بُدَّ أنّ تجدَ له اسمًا جَميلًا .

جَعلَت الأسماءَ تَتردَّدُ في ذِهنِها وهي تَرْكُضُ . ماجدٌ . عثمانُ . قدري . أو رُبّما حَسَنٌ . لا بأسَ باسمِ حَسنٍ . يجبُ أنْ تَتشاوَرَ معَ حوجٍ ، إذ لا بُدَّ مِن أن يُشَارِكَ في الأمرِ .

رَكَضَت بسُرعَةٍ وخِفّةٍ ، فليسَ هُناكَ حَيَوانٌ أسْرَعُ مِنها سوى الفَهدِ الصَيّادِ .

الفهدُ الصيّادُ هو أسْرَعُ الحَيواناتِ في هذه الصّحراءِ .

حاسّةُ النَّظَرِ لديها جيّدةٌ أيضًا . كانَت تتلفَّتُ يَمينًا ويَسارًا وهي تعدو ، وَفقًا لِعادتِها ؛ إذ إنَّها لا تتوقَّعُ حدوثَ مَكروهٍ الآنَ . لَيْسَ هُناكَ ثَعالبُ في الجِوارِ الآنَ . لَيسَ هُناكَ أُسودٌ ولا فُهودٌ صَيّادةٌ .

الحَذَرُ لَمْ يحرِمْها مِنَ الشُّعور بِالفَرَحِ . لَمْ يَدقَّ قلبُها أسْرَعَ مِنَ عادتِه . ازدادَ توقُها كُلّما اقتربَت مِنَ المَكانِ الذي تَرَكَت فِيهِ حوجًا والصَّبِيّ . إنها تَشْعُرُ بذاتِ الفَرَحِ الذي تَشْعُرُ به عادَةً عِندَما تقتربُ مِنَ عُشٍّ مَليءٍ بِصغارِها هي . رَكَضَت بخطواتٍ طَويلةٍ بِاتّجاهِ الواحةِ التي ملأَتها السّراباتُ . غيرَ أنّها لَمْ تَكُنْ تكترِثُ لتلك السّراباتِ التي كانَت تبدو كمُستنقعاتِ ماءٍ ضَخمةٍ لامعةٍ وَسطَ الرِّمالِ .

لَفَتَ نَظَرَها فَجْأةً نَسْرٌ مَشؤومٌ كانَ يَحومُ في حَلَقاتٍ تَضيقُ في السّماءِ تَدريجيًا . النُّسورُ تحومُ دائمًا بهذه الطّريقةِ إذا كانَت تَنتظِرُ مَوتَ أحَدٍ ما .

عِندَها رأَت كُتلةً سَوداءَ على الأرضِ ، كتلةً سَوداءَ هامِدةً بلا حَرَكَةٍ .

دَبَّ الذُّعرُ في قلبِها فرَكَضَت بِسُرعَةٍ باتّجاهِ تِلكَ الكُتلةِ .

إنّهُ الوَلَدُ البَشَريُّ .

إنه وَلَدُها .

كانَ مُمَـدَّدًا على الأرضِ ، وَجهُهُ في الرَّمْلِ ، بِلا حَرَكَةٍ . تَنَفَّسَتْ بِصُعوبةٍ ولَكَزَتهُ بِمنقارِها . دَفَعَت بِقدمِها وجعلَتهُ ينقلبُ لِيستلقيَ على ظَهرِه . داعَبَت وجهَهُ بأحدِ جناحَيها بِغايةِ اللُّطفِ .

عِندَها رأت حَرَكَةً صَغيرةً ، بدأَت في جُفونِه التي تحرَّكتْ قليلًا ، فتحَ بعدَ ذلكَ فَمَه قَليلاً وأَغلَقَه ثمّ رَفَعَ الصّبِيُّ يدَه قَليلاً ووَضَعَ إبهامَه في فَمِه .

لم تتمكّنْ مِنَ تَذَكُّرِ البَقيّةِ فيما بَعدُ . فلم يَبْقَ في ذِهنِها صُورٌ واضِحةٌ لذلكَ الحَدَثِ ؛ لأنَّ ذُعرَها كانَ هائلًا .

تَمَدَّدَتْ على الأرضِ وتَمَكَّنتْ بعدَ حينَ بطَرِيقةٍ أو بأخرى مِن أن تَجعلَ

الصَّبِيَّ يصعَدُ فَوْقَ ظهرِها ، وهكذا حَمَلَتهُ بحَذرٍ فائقٍ حتى لا يَقَعَ ، وسارَت به إلى النَّبْعِ الذي كانَت قد وَجَدَتهُ لتوِّها . عِندَما وَصَلَت إلى النَّبعِ تَمدَّدَت على الأرضِ ودَفَعَت بالصَّبِيِّ إلى حافةِ المَاءِ . رأَته مُمَدّدًا على بَطنِه وكأنَّهُ مَيِّتٌ ، ثمّ رأَته يَتَحَرَّكُ قَليلاً ويَزْحَفُ باتِّجاهِ المَاءِ . غَطَّسَ يديه في المياهِ ثمّ أحنى رأسَهُ تِجاهَها .

تَمَنَّت ماكو أنْ يقوَى الصَّبِيُّ على حَملِ رأسِه فَوْقَ سَطحِ المَاءِ حتى لا يَسقُطَ فيه ويغرقَ . هذا ما حَدَثَ للعديد مِنَ صِغارِها الذين أوهنَهم العَطَشُ . لكنّ الصَّبِيَّ تَمَكَّنَ مِن رَفعِ رأسِه فَوْقَ سَطحِ المَاءِ ، إذْ غَطَّسَ فَمَه فقطْ وَراحَ يَشْرَبُ . ثمّ يَشْرَبُ . ثمّ يَشْرَبُ .

سَتُصبِحُ هذه الحادثةُ الذِّكرى الثانيةَ التي سَيحتفِظُ بها الطِّفْلُ في ذِهنِه . سَوفَ يَتذكَّرُ طَوالَ حياتِه تِلكَ المَرَّةَ التي أتَتَ بها أُمُّه وأيقظَته مِنَ النَّومِ بمداعَبتِها له بوساطةِ جَناحِها . الصُّورةُ التّاليةُ التي سَتَحِلُّ في ذِهنِه هي صُورتُه وهو مُمَدَّدٌ على الأرضِ غارِسًا يدَيه في المَاءِ الذي راحَ يَشرَبُ منه . لَمْ يَسبِقْ له قَطُّ أن تذوَّقَ شَيْئًا بهذه اللّذةِ وهذه العُذوبةِ .

أرسَلَت ماكو الإناثَ الشّاباتِ لِتحضِرَ حوجًا إليها . تظاهرَ بأنّهُ لَم يَرَ الصَّبِيَّ وسارَ إلى المَاءِ ليَشرَبَ لمدةِ دقائقَ متتاليةٍ . أظهرَت ماكو سُخطَها عَلَيهِ حينَ رفَعَت ريشَها ، وزأَرَت به . غادَرَ حوجٌ المَكانَ ليتفادى حَنَقَها . كانَ خائِبَ الأمَلِ بِسبَبِ نَجاةِ الصَّبِيِّ . لَكِنَّهُ سيُرضي ماكو حينَ يَجِدُ مَكانًا يبني فِيهِ عُشًّا لهما ؛ عندَئذٍ ستضعُ ماكو بَيْضاتٍ جَديدةً ، وسيؤدّي هذا إلى حُصولِهما على صِغارٍ جُدُدٍ . بعدَ ذلكَ ستنسى ماكو بالطَّبعِ ذلكَ الطِّفْلَ البشريَّ العديمَ الفائدةِ ، ذلكَ الكائنَ المُشوَّهَ الذي لا

يكادُ يَقوى على السَّيرِ . إنَّهُ لا يَستحِقُّ النّجاةَ .

كانَ هُناك ، بالقُربِ مِنَ النَّبعِ ، كَثِيرٌ مِنَ النباتاتِ الخَضراءِ . أكَلَت الإناثُ الشّاباتُ مِنها بِنَهَم . جَمَعَت ماكو أمامَها القليلَ مِنَ الطَّعامِ ، لكنّها لَم تستطعْ تناوُلَه . أرادَت أنْ تُحاوِلَ التَّحَدُّثَ إلى الصَّبِيِّ مَرَّةً أُخرى . تَمَدَّدَت على الأرضِ وراحَت تتأمَّلُهُ حَيْثُ كانَ يجلسُ بالقُرْبِ مِنَ النَّبعِ . حَاوَلَت أن تُركِّزَ ذِهنَها كُلِّيا . أرادَت أن تكونَ أفكارُها قويّةً وواضِحةً .

قالَت : «اسمي ماكو . أنا أمُّك .»

«اسمي هَدارةُ .» قال الصّبِيُّ بِوضوحٍ .

تكلَّمَ كَما تتكلَّمُ طيورُ النَّعامِ ، إذْ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا بِفمِه ولم يَنطِقْ بأيِّ صَوتٍ ، بل أرسلَ إليها جوابَهُ بِواسِطةِ أفكارِه .

«هَدارةُ ، هَدارةُ .» ردَّدَت ماكو . إنَّهُ اسمٌ جَميلٌ . كنْتُ سأُطلِقُ عليكَ اسمَ حَسَنٍ ، لكنَّ هَدارةَ اسمٌ أجملُ بكَثِيرٍ .

بَحَثَ ذكرُ النَّعامِ حتى وَجَدَ مَكانًا جيِّدًا يبني فِيهِ عُشًّا . كانَ المَكانُ مُرتفعًا بَعْضَ الشَّيْءِ ، بينَ شُجيرتَين . تَمدّدَ على الأرضِ وحَفرَ الرَّمْلَ بِجَسدِه حتّى صارَت تَحتَهُ حُفرةٌ مُستديرةٌ واسعةٌ لِلغايةِ ، وذلكَ لتضعَ فيها أُنثاهُ بيضَها . عادَ أخيرًا إلى السِّربِ . كانَ الوَلَدُ نائمًا .

نَظَرَت ماكو بِقلَقٍ إلى الطِّفلِ الّذي باتَت تَعرِفُ الآنَ أنّ اسمَه هَدارةُ . كانَ هَدّارةُ نائمًا بِعُمقٍ وقد كَوّرَ جَسدَه ، في ظِلالِ شَجرةٍ .

تَبِعَت ماكو حوجًا وقد بدَت عليها علاماتُ الحَنَقِ . قادَها حوجٌ إلى العُشِّ الذي بناه ، تَمَدَّدَ على أرضِه وصفّقَ بِجناحَيه . نالَ العُشُّ إعجابَ ماكو .

. راحَت ماكو بعدَ ذلكَ تبيضُ في هَذِهِ الحُفْرَةِ ، صارَ عليها مِنَ الآنَ وصاعِدًا أن تبيضَ بَيْضةً كُلَّ ثلاثةِ أَيّامٍ ، وأن ترقدَ طَوالَ اليَوْمِ فَوْقَ البَيضاتِ ولأشهُرٍ مُتتاليّةٍ .

كانَ القلقُ يعتريها .

ماذا سيكونُ مصيرُ هَدارةَ الآنَ وهي ترقدُ في العُشِّ؟ لَمْ يُعِنْهُ أحَدٌ سواها حتى الآنَ على إيجادِ الطَّعامِ ؛ الديدانِ ، الخنافسِ ، النباتاتِ ، الجذورِ وعَقْرَبٍ ما هنا وهُناك . هل سيتمكَّنُ مِنَ إيجادِ طَعامِهِ بِنفسِه؟ لا يمكِنُها الاعتمادُ على حوجٍ فيما يتعلّقُ بهذا الأمرِ ، حوجٍ الذي يُظهِرُ كَراهيّتَه تجاهَ الطِّفْلِ عَلَنًا .

كانَت تَشْعُرُ بازديادِ الفَرَحِ معَ كُلِّ بَيضةٍ تَبيضُها ، لكنَّ قلقَها على هَدارةَ الصّغيرِ كانَ يَتزايدُ أيضًا .

عِندَما كانَت ترقُدُ على البَيضاتِ في النَّهارِ كانَت تجعلُ الصَّبِيَّ يَبقى بالقُربِ مِنَ العُشِّ . حوجٌ كانَ يرقدُ فَوقَ البَيضاتِ في أثناءِ اللَّيلِ . كانَت تفرِدُ عندَها جناحَيها فَوْقَ هَدارةَ لِتحميَه مِنَ البَردِ القاتِلِ .

ثلاثةُ أحداثٍ وَقَعَت وغَيَّرَت مَجرى حَياةِ هَدارةَ .

وَقَعَت الحادِثةُ الأولى في يومٍ مِنَ الأَيّامِ عِندَما قامَت ماكو مِن مَكانِها كعادتِها وتَركَتِ البَيضاتِ لِمَصيرِها لِمُدّةٍ وَجيزةٍ . كانَ لا بدَّ لماكو مِن أنْ تَبحثَ عن بعضِ الطَّعامِ الذي تسدُّ به جُوعَها . بقيَ هَدارةُ جالِسًا بالقُربِ مِنَ العُشِّ . بعدَ لحظاتٍ مِن مُغادرةِ النَّعامةِ الأمِّ ظَهرَ سِربٌ كاملٌ مِنَ النُّسورِ المِصريّةِ في الجَوِّ .

تُعدُّ النُّسورُ المِصريّةُ مِنَ ألدِّ أعداءِ طُيورِ النَّعامِ ؛ لأنّها تأكُلُ بَيْضَ النَّعامِ .

بالرغمِ مِنَ أنّها تَعجَزُ عن نَقرِ ثُقبٍ في قِشرةِ بَيْضةِ النَّعامِ إلاّ أنَّها قد تَوصَّلَت إلى طَريقةٍ تُمكِّنُها مِنَ قَتلِ الحَياةِ المَوجودةِ داخِلَ البَيضَةِ والتهامِ مُحتوياتِها اللَّذيذةِ . رأى هَدارةُ الآنَ تِلكَ الطَّريقةَ دُوْنَ أنْ يستوعِبَ ما رآه .

انخفضَ نَسرٌ إلى مُحاذاةِ الأرضِ والتقَطَ حَجَرًا بِمنقارِه ، ثمّ طارَ وحلَّقَ فَوْقَ العُشِّ ثمَّ رَمى الحَجَرَ . أصابَ الحَجَرُ إحدى بَيضاتِ النَّعامِ ممّا أدى إلى كَسرِها على شَكلِ فَتحةٍ مُستديرةٍ . انقَضَّ النَّسرُ على البَيضَةِ وجَلسَ فَوْقَها ثمّ راحَ يلعَقُ مُحتواها . حطَّتِ النُّسورُ الأخرى ، وجلسَ الواحدُ مِنها تلوَ الآخَرِ فَوْقَ بَيضاتِ النَّعامةِ مُحَدِّقَةً إلى النّسرِ الذي كانَ يَتَناوَلُ فَريسَتَه .

رأى هَدارةُ كُلَّ ذلكَ دُوْنَ أنْ يفهمَ ما رأى ، لَكِنَّهُ رأى حينَ لَوّحَ بذراعَيه أنّ النُّسورَ طارَت بأَجْنِحةٍ صافقةٍ غاضبةً .

غادَرَت النُّسورُ المِصريّةُ المَكانَ ولم تَعُدْ .

عِندَما غادَرَت ماكو عُشَّها في يومٍ آخرَ أتى أحَدُ فُهودِ الصّحراءِ النادِرةِ مُتسلِّلا . شَمَّ رائحةَ البَيضاتِ اللّذيذةَ وَراحَ يضربُها بِبراثِنه ،لكن البَيضَةَ لَمْ تنكَسِرْ . حَاوَلَ الفهدُ أن يَعُضَّ على البَيضَةِ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ كَسرِها بأسنانِه لكنَّ حَجمَ البَيضَةِ كانَ ضَخمًا جِدًّا . راحَ الفَهدُ عندَها يُدحرِجُ إحدى البَيضاتِ ذَهابًا وإيابًا فَوْقَ الأرضِ ، ذهابًا وإيابًا .

قامَ هَدارةُ مِنَ مَكانِه وسارَ باتِّجاهِ الفَهدِ . لَمْ يفعلْ ذلكَ لحمايةِ البَيضاتِ ، إذا أردْنا قَولَ الحَقيقةِ ، بلْ أرادَ أنْ يلعبَ معَ الفَهدِ . لكنَّ الفَهدَ غادَرَ المَكانَ مذعُورًا واخْتَفى في أبعادِ الصَّحراءِ المُسطَّحةِ بِخُطُواتٍ سَريعةٍ ناعِمةٍ ، عِندَما اقتربَ مِنه الوَلَدُ .

الحادثةُ الثالثةُ التي أدّت إلى تغييرِ مَركزِ هَدارةَ داخِلَ السِّرْبِ وقعَت بعدَما فَقَسَتِ البَيضاتُ الأولى . هذه المرحلةُ هي الأخطرُ في حياةِ صِغارِ النَّعامِ . نِصفُ الصِّغارِ يُقتلُ عادَةً بعدَ خُروجِهم مِنَ البَيضَةِ بِوقتٍ قَصيرٍ . العَدوُّ الأكبَرُ لهم هو الغُرابُ . أتَتِ الغِربانُ بِكثرةٍ تجعلُها تبدو كغيمةٍ كثيفةٍ قَبْلَ أنْ تَحُطَّ بالقُرْبِ مِنَ الصِّغارِ الّذين خَرجوا مِنَ البَيضِ حَديثًا . وَقَفَ حِينَها هَدارةُ مِنَ مَكانِه ولوَّحَ بيدَيه إلى أنْ رأى الغِربانَ تُغادرُ المَكانَ . كانَ المَنْظَرُ مُضحكًا له كلَّما رأى الغِربانَ ، فيما بعدَ راحَ يلوّحُ بذراعَيه ويستمتعُ برؤيتِها حينَ تطيرُ مُغادِرةً .

كانَ ذكرُ النَّعامِ حوجُ قد رأى الحوادثَ الثّلاثةَ .

في أحَدِ الأيّامِ ، حَيْثُ كانَ الفَرْخُ الأخيرُ يَزْحَفُ خارجَ البَيضَةِ التي تكونُ داخلَها ، وحيثُ كانَ هَدارةُ يجلسُ بالقُرْبِ مِنَ العُشِّ كعادتِه ، رأى حوجُ أفعى ذاتَ قُرونٍ . كانَ هوجُ وجَميعُ الحَيَواناتِ التي تعيشُ في الصَّحراءِ على علمٍ بأنّ تِلكَ الأفعى هيَ أكثَرُ الأفاعي السّامَّةِ خُطورةً . زَحَفَتِ الأفعى فَوقَ الرّمالِ باتِّجاهِ هَدارةَ . كانَت تزحفُ على جَنبِها كَما تفعلُ جَميعُ الأفاعي ذاتُ القرونِ . ضَحِكَ هَدارةُ ، وَقَفَ ثمّ راحَ يسيرُ باتِّجاهِ الأفعى . كانَ يريدُ أن يمسكَ بها ليلعبَ معَها . لكنْ عِندَما اقتربَ

الوَلَدُ مِنَ الأفعى ، حفرَت لِنفسِها طَرِيقًا في الرَّملِ واختفَت . كانَت تختبئُ تَحتَ سطحِ الرّمالِ مُباشرةً كَما تفعلُ الأفاعي الأخرى ، وعِندَما تَشعُرُ بالأمانِ ، تُبرِزُ ذيلَها مِن تحتِ التُّرابِ وتَهزُّه . بهذه الطَرِيقةِ تجلبُ الأفعى السّحالي إليها .

رأى هَدارةُ مؤخِّرةَ الذّيلِ التي ظَهَرَت لِلعيانِ مِن تَحتِ الرَّملِ . جلسَ على الأرضِ بِثِقلٍ وَراحَ يَزحَفُ تِجاهَ ذلكَ الشَّيءِ الظّريفِ الذي كانَ يَتَحَرَّك . عِندَما وَصَل إليه أمْسَكَ بالذّيلِ فظَهَرت الأفعى بأكملِها مِنَ تَحْتَ الرَّملِ . انحَنَت بعدَ ذلكَ لتجمعَ قُواها وتنقضَّ بسُرْعَةٍ على الصَّبِيِّ وتَغرُزُ أسنانَها الرقيقةَ السامّةَ في جسدِه .

شاهدَ حوجُ الحَدَث بأكملِه .

خطا خطوتَينِ سريعتَينِ تجاهَهُما وقتلَ الأفعى بِضَربةٍ واحِدةٍ مِنْ مِنقارِه . حالما تأكَّدَ مِنَ أنّ الأفعى ماتَت حقًّا ، استَدارَ وغادَرَ المَكانَ . بَحَثَ طَويلاً حتى وَجَدَ نبتةً لها أوراقٌ سميكةٌ جدًّا .

عادَ حوجُ بعدَ ذلكَ إلى الصَّبِيِّ دُوْنَ أن يُخاطبَه ، لَكِنَّهُ وَضَعَ النبتةَ أمامَ هَدّارةَ .

وقفَ بعدَها بِجانبِ الصَّبِيِّ وشاهَدَهُ يَتَناوَلُ النّبتةَ .

الفصلُ السادسُ

الابنُ المُفَضَّلُ

صارَ هَدارةُ مِنَ الآنَ فصاعِدًا واحدًا مِنَ سِربِ النَّعامِ . كانَ حوجُ يسيرُ دائمًا في الطّليعةِ حينَ يتنقّلون في الصَّحراءِ .

حوجُ في المقدّمةِ .

وبعدَه هَدارةُ .

وفي المَرتبةِ الثّالثةِ كانَت تأتي الأنثى ماكو .

شَيئًا فشَيئًا تحسّنَت قُدرةُ الصَّبيِّ على السّيرِ ثمّ صارَ يَرْكُضُ أيضًا .

عِندَما كانَ سِربُ النّعامِ يتنقّلُ في الصَّحراءِ ، جَعَلَ قائدُ السِّربِ السُرعَةَ تلائمُ الأبطأَ . كانَ هَدارةُ هو الأبطأَ دائمًا . لكنَّ ذلكَ لَمْ يعدْ يُزعِجُ أحَدًا ولا حتّى حوجًا . فقد رأى حوجُ كَثِيرًا مِنَ المَنافعِ في الاحتفاظِ بالطِّفْلِ البَشريِّ بالرّغمِ مِنَ أنَّهُ كانَ يسبِّبُ كَثِيرًا مِنَ المَتاعبِ وبالرغمِ مِن أنَّهُ لَمْ يحسِنِ الرَّكْضَ جيّدًا .

لذَلِكَ صارَ يفردُ جناحَيه فَوْقَ الصَّبيِّ في أثناءِ اللَّيلِ ليحتفظَ الصَّبيُّ بدفئِه . في بَعضِ الأحيانِ كانَت أوقاتُ النّهارِ حارّةً جِدًّا واللّيالي باردةً جدًّا . لَمْ يَشعُرْ هَدارةُ بالبردِ بِفضلِ والدَيه ، طائرَيِ النَّعامِ .

لم يتوقفْ هَدارةُ عن عادتِه بأنْ يلوّحَ بذراعَيه وأن يرميَ الحِجارةَ على الغِربانِ والنُّسورِ المِصريّةِ كلّما اقتربَت مِن صِغارِ النَّعامِ . كانَ يحبُّ أن يرى الطُّيُورَ وهي ترتفعُ في الجوِّ وتطيرُ مُغادِرةً .

اكتشفَ حوجٌ خاصيّةً مُمَيِّزةً أخرى لدى هذا العُضو الجَديدِ في السِّربِ . حينَ تصلُ طيورُ النَّعامِ إلى نبعٍ أو بِركةٍ ما ، تتصرّفُ بِحذرٍ تامٍّ ، لذلكَ تدعُ الحَيَواناتِ الأخرى بما فيها الغِربانُ ، تشربُ قبلَها . لكنْ عِندَما يكونُ هَدارةُ مَوجودًا ، يسيرُ إلى المَاءِ مُباشرةً بينَما تتفادى الحَيَواناتُ الأخرى مواجَهتَه ممّا باتَ يفسحُ المَجالَ أمامَ طُيورِ النَّعامِ لِتشربَ أوّلًا .

كانَت ماكو تُراقِبُ هَدارةَ بلا انقطاعٍ ، وكانَ يُسعدُها أن تراهُ وهو يقلِّدُها ويقلِّدُ صِغارَها . كلّما صارَ أشبهَ بطيورِ النَّعامِ كلّما ازدادَت سعادةً . كانَت هي وطيورُ النَّعامِ الأخرى تأكلُ الحَصى . الحَصى تبقى في المعدةِ وتُساعدُ على هَضمِ الطَّعامِ . عِندَما خَرجَ صِغارُها مِنَ البَيضِ راحوا يبحثونَ عن طَعامٍ لأنفسِهم بعدَ فَتْرةٍ قَصيرةٍ ، وصارَ كلٌّ منهم يلتقِطُ الحَصى بِمنقارِه ثمّ يبتلعُه . رأى هَدارةُ ذلكَ ممّا جَعَلَهُ يلتقطُ حَصوةً صَغيرةً بينَ فَتْرَةٍ وأخرى ثمّ يبتلعُها . أسعدَ ذلكَ ماكو كَثيرًا ، لكنّها رأت أيضًا أنّ الحَصى كانَت تَخرجُ مِن مَعِدةِ هَدارةَ معَ البُرازِ . أقلقَها ذلك . هذا لا يحدثُ معَ طائرِ نَعامٍ حَقيقيٍّ . لدى طائرِ النَّعامِ تبقى الحَصى في المَعدةِ حتّى تتحطَّمَ وتذوبَ فيضطرُّ عندَها طائرُ النَّعامِ إلى تناولِ الحَصى مِنَ جَديدٍ . لَمْ تَبدُ على هَدارةَ علاماتٌ تدلُّ على أنّ صِحّتَه ليسَت على ما يُرامُ بالرّغمِ مِنْ أنّ الحَصى التي كانَ يبتلعُها كانَت تخرجُ معَ معدتِه بعدَ فَتْرَةٍ قَصيرةٍ .

لكنَّ الفارقَ الكَبيرَ كانَ العَطَشُ . طيورُ النَّعامِ ، كَبيرةً كانَت أم صَغيرةً ، تستطيعُ العيشَ أيامًا مُتتاليّةً دُونَ ماءٍ . ثمّ إنّ أجسامَها مُغطّاةٌ بالرِّيشِ . أمّا ذلكَ الوَلَدُ الصغيرُ العاري فقد كانَ مُعرَّضًا لشَمسِ الصَّحراءِ التي لا تَرحم . رأت ماكو أنَّ الإرهاقَ كانَ يبدو عَلَيهِ عِندَما لا يكونُ هُناك ماءٌ يَشْرَبه . لَمْ يَقوَ عندَها على السّيرِ بل كانَ يَجلِسُ في مَكانِه ويضعُ إبهامَه في فَمِه . كانَ أحيانًا يبكي بِصمْت حينَ يعاني مِنَ العَطَشِ وكانَت الدّموعُ تنحدِرُ على خَدَّيه . كانَ مَنظَرُه وهو يبكي يحزُّ في قلبِ ماكو . كانَت تتألّمُ كَثِيرًا وتحاولُ مسحَ قَطَرات المَاءِ المالحِ تِلكَ التي كانَت تغطّي خَدّيه بأنعمِ الرّيشِ الذي يُغطّي جناحَيها . أدركَت هي وحوجٌ باكرًا أنّ الصَّبِيَّ يحتاجُ إلى شُربِ المَاءِ أكْثَرَ مِنَ طيورِ النَّعامِ العاديّةِ . قَرّرا لذلكَ البقاءَ في أمكنةٍ قريبةٍ مِنَ المَاءِ حتى ولو كانَت خَطيرةً . إلى بِرَكِ المَاءِ تأتي بناتُ آوى لِتشربَ ، ورُبَّما الفهودُ أيضًا والأُسودُ . طَوالَ السّنةِ الأولى التي مَكثَ فيها هَدارةُ معَ سِربِ النَّعامِ ، بقيَ السِّرْبُ بالقُرْبِ مِنَ واحدٍ مِنَ الأمكنةِ النادِرةِ التي تحتوي على المَاءِ في الصَّحراءِ . كانوا يأخذونَه إلى البِركةِ مرّةً كلَّ ثلاثةِ أيّامٍ .

عَلَّمتهُ ماكو أمرًا هامًّا جِدًّا وهو البحثُ عن أوراقِ النّباتاتِ التي تَحتوي على كَثِيرٍ مِنَ السّوائلِ . كانَت تعلمُ أيضًا أنَّ اليَرَقَ والديدانَ والخنافسَ والعقاربَ غذاءٌ يمنحُ صِغارَ النَّعامِ القُوةِ . كانَت في البِدايةِ تَحفِرُ بحثًا عن هذه الحَيَواناتِ مِنَ أجلِه ، لكنْ بعدَ فَتْرَةٍ قَصيرةٍ لَمْ تعدْ تحتاجُ لذلك . تعلّمَ هَدارةُ مثلَ صِغارِها بِالضّبطِ أن يبحثَ عن طَعامِه بِنفسِه . الأمرُ الذي لَمْ تتساهلْ فيه هو قيلولةُ بعدَ الظُّهرِ . كانَ الصَّبِيُّ يحبُّ اللَّعِبَ

كَثِيرًا ، أكْثَر مِن صِغارِها ، لكنّها علّمَتهُ عادَةً طيِّبةً ؛ علّمَتهُ أنْ ينامَ معَ بقيةِ أفْرادِ السِّرْبِ في الأوقاتِ الحارّةِ جدًا . كانوا عندَها ينامونَ في الظِّلِّ هنا أو هُناك تهرُّبًا مِن أسخنِ ساعاتِ النّهارِ .

كانَت ماكو تتحدَّثُ عادَةً إلى حوجٍ عنِ الطِّفْلِ البَشريِّ ، فيوافقُها الرأيَ على أنَّهُ مِنَ الواضحِ أنَّهُ لَمْ يكنْ نَعامَةً حَقِيقيّةً . كَثِيرٌ مِنْ تصرُّفاتِه كانَ غامضًا بالنسبةِ إليهما . كانَ مثلًا يلتقطُ عِيدانًا خَشبيةً ويحملُها معَه في أثناءِ تنقّلاتِهم . عِندَما يبقونَ في مَكانٍ ما كانَ يرسمُ في الرَّمْلِ بِوساطةِ تِلكَ العِيدانِ . ثمّ أنَّهُ لَمْ يأكُلْ كُلَّ ما كانَ يجدُه مِنَ الحَصى بل كانَ يضعُها على الرَّمْلِ مُكوَّمًا منها أشكالًا مُعيَّنةً . إذا رأى كَثيبًا رَمليًا كانَ لا بُدَّ له مِنَ أن يصعدَ إلى أعلاه ليتدحرجَ بعدَ ذلكَ إلى أسفلِه . لَمْ يقمْ صغارُهما بأيٍّ مِنَ تِلكَ الأفعالِ . ثمّ أنَّهُ كانَ يَرْكُضُ ويختبئُ ليبحثَ عنه الصّغارُ . تِلكَ اللُّعبةُ لَمْ تُعجِبْ أحدًا سِواه .

لكنّ أغربَ ما في الطِّفْلِ البَشريِّ هذا هو أنَّهُ لَمْ يكبرْ ليُصبحَ بالغًا . كانَ صِغارُهما يبلغون سِنَّ الرُّشدِ عِندَما يكملونَ شهرَهم الثامنَ . في شهرِهم الثامنِأو التاسعِ كانَ صِغارُ النَّعامِ بذاتِ الحجمِ الذي كانَت عَلَيهِ ماكو وحوجُ ، وكانوا قادرينَ تَمامًا على تدبيرِ أمورِهم بأنفسِهم ، وعندَها يطردُهم الوالدانِ ، أيْ ماكو وحوجُ مِنَ السِّربِ . كانَ الأمرُ مُؤلمًا . أن يَطردُ المرءُ صِغارَه مِنَ السِّرْبِ أمرٌ صَعبٌ جدًا . لكنَّ ماكو وحوجَ كانا يعلمانِ أنّ صغارَهما صاروا كبارًا بالغِينَ ، وأنّ عليهم أن يعيشوا حياتَهم هُم .

لكنّ الأمرَ كانَ مُختلفًا تَمامًا فيما يتعلّقُ بهَدارةَ ؛ لأنّهُ ما يزالُ طفلًا حتى الآنَ . كانَ يسيرُ بِبُطءٍ وبعدَ سنةٍ كاملةٍ معَ السِّرْبِ مازالوا يضطرونَ

لإبطاءِ خُطواتِهم لتتناسبَ سُرعتُهم و سُرعتَه . هل سيتمكّنُ في يومٍ مِنَ الأَيّامِ مِنَ الرَّكْضِ بالسُرْعَةِ التي يَرْكُضُ بها طائرُ نعامٍ حَقِيقيّ؟ كانَ بُطْؤُه سلبيًا بالطّبعِ . غيرَ أنّ أمرًا غيرَ عاديٍّ ، كانَ قد حَدَثَ بفضلِه . لقد أفزعَ أعداءَهم .

لأوّلِ مرّةٍ في حياتِهما نجا جَميعُ صغارِهما مِنَ المَوتِ .

لذَلِكَ قرّرا ألا يتخلّيا عنِ الطِّفْلِ البشريِّ أبدًا .

سوفُ يعيشُ معهم دائمًا .

سيجعلانِه يبقى بِالقُربِ مِنَ صِغارِهما ، إذ إنَّهُ أحَدُ صِغارِهما . لقد أصبحَ ابنَهما المُفضَّلَ ولن يتركَهما أبدًا .

وهذا ما حَدَثَ بالفعلِ .

بقيَ هَدارةُ معَ سِربِ النَّعامِ .

عِندَما كانَت ماكو وحوجُ يلتقيانِ بأسرابِ نعامٍ أخرى كانا يقولان دائمًا :

– ربما يسيرُ بِبُطءٍ قليلًا ، لَكِنَّهُ ابنُنا المُفضَّلُ .

الفصلُ السابعُ

المَكانُ المَمنوعُ

كانَت هُناك صباحاتٌ مُميَّزةٌ . فالشمسُ عندَما ترتقي في الأفقِ يصبحُ هواءُ اللَّيلِ البارِدِ فاترًا مُمتعًا . في صباحاتٍ كهذه كانَت سعادةٌ خياليّةٌ تغمرُ كُلَّ أفرادِ سِربِ النَّعام . لقد عاشَ هَدارةُ إلى اليَوم عشرَ سَنواتٍ معَ طُيورِ النَّعام . لَكِنَّهُ ما زالَ عاجزًا عن فَهمِ ما يَحدُثُ لها بينَ فَتْرَةٍ وأخرى . حوجٌ كانَ أَوَّلَ مِنَ استيقظَ هذا الصّباحِ ، انتفضَ قَليلاً ثمّ رَكَضَ بسُرعَةٍ رهيبةٍ إلى عُمقِ الصَّحراءِ . نَظَرَ الآخَرونَ إليه باهتمامٍ . كانوا ينتظرونَ أن يتوقّفَ عنِ الرَّكضِ . توقّفَ فعلًا فَجأةً ، مما جَعَلَ الرَّملَ يتطايرُ حَولَ قدمَيه الضّخمتَينِ . رَفَعَ بعدَ ذلكَ جناحَيه وَراحَ يدورُ حَولَ نفسِه وكأنّه راقصةٌ باليهَ . قامَت ماكو مِن مَكانِها ، رَكَضَت خَلْفَهُ وفعلَتْ مثلَما فَعلَ . وهكذا فَعَلَ صغارُهما أيضًا . توحّدوا جَميعًا في دَوّامةِ رَقصٍ مَلأتها بهجةُ الحَيَاةِ على ضَوءِ ذلكَ الصّباحِ الباكرِ .

كانَ هَدارةُ آخرَ المستيقظِينَ ، لَكِنَّهُ بدأ يَرْكُضُ بسُرْعَةٍ خاطفةٍ تجاهَ عائلتِه ، سِربِ النَّعام . عِندَما وَصَلَ إليهم رَفَعَ ذراعَيه في الهَواءِ ، رَفرفَ بها وكأنّهما جناحانِ ، وَراحَ يدورُ حَوْلَ نفسِه راقصًا مِثلَ الآخَرينَ .

أحسَّ كُلٌّ منهم بالجوعِ بعدَ الرّقصِ فراحوا يبحثون عمّا يأكلونَه . كانَ الطَعامُ قَليلاً جدًّا . أخيرًا قالَ حوجُ :

– يجبُ علينا أنْ ننتقلَ اليَومَ . لَمْ يعدْ لدينا ما نأكلُه هنا . وليسَ هُناك ماءٌ لِهَـدارةَ .

ربما كانَ الجوعُ والعطشُ هما السببُ في فَقدِ حوجٍ لِصوابِه . كانَ في الصَّحراءِ مَكانٌ قرّرَ هو وماكو مرّةً ألا يزورانِه ثانِيةً أبدًا . كانَ ذلكَ هو المَكانَ المَمنوعَ . سارَ سِربُ النَّعامِ إلى ذلكَ المَكانِ بخطًى سَريعةٍ يحثُّهم الجوعُ والعَطَشُ . كانوا يركُضونَ كعادَتِهم في صَفٍّ طويلٍ . حوجٌ في المُقدّمةِ وبَعدَه هَدارةُ الذي تحوّلَ إلى صَبيٍّ في الثّانيةَ عشرةَ مِنَ العُمرِ ، نحيفِ القامةِ ، عاري الجَسدِ ، ذي شعرٍ أَسْوَدَ طَويلٍ يتطايرُ في الهواءِ حينَ يركُضُ . بعدَ هَدارةَ كانَت ماكو تسيرُ عادَةً ومن بعدِها سارَ الصّغارُ .

كانَت ماكو هي التي أطلقَت ذلكَ الاسمَ على المَكانِ المَمنوعِ .

كانَت قد قرَّرَت في يومٍ مِنَ الأيامِ ، ألاّ تدعَ السِّرْبَ يعودُ إلى ذلكَ المَكانِ ثانِيةً على الإطلاقِ .

المَكانُ الممنوعُ هو المَكانُ الذي وَجدوا فِيهِ هَدارةَ منذُ أكْثَرَ مِن عشرِ سنواتٍ . المَكانُ الذي أضاعَت فيه أمٌّ شابَّةٌ طفلَها الصّغيرَ في أثناءِ عاصفةٍ رَمليّةٍ . كانَت ماكو تعلمُ أنّ هَدارةَ لَيْسَ ابنَها الحَقِيقيَّ . وليسَ هو نَعامَةً حَقِيقيّةً أصلًا ، لكنّها لَمْ تخبرْه في يومٍ مِنَ الأَيّامِ بِالحقيقةِ .

كانوا يركُضون في بُقعةٍ صَخريةٍ قاحِلةٍ مِنَ الصَّحراءِ . كانَت الأرضُ مغطّاةً بحجارةٍ سوداءَ مُسطّحةٍ . لَمْ يكنْ هُناكَ ما يمكنَ أكلُه على

الإطلاقِ ، لذلكَ أسْرَعوا الخُطى . لكنَّ ماكو أرادَت أنْ تُريَ الآخَرين شَيْئًا ما . أبطأَت خُطاها ، حَنَت رأسَها وراحَت تنظرُ إلى كلِّ حجرٍ على حِدَةٍ . أخيرًا وجدَت ما كانَت تبحثُ عنه .

– انظُرْ ، قالَت لِهَدارةَ ، ها هُم أجدادُنا .

كانَ على أحَدِ الحِجارةِ السّوداءِ المُسطّحةِ رَسمٌ لِنعامةٍ راكِضةٍ .

– مَنْ رسمَها؟ سألَ هَدارةُ ، كيفَ وَصَلَت هذه الصورةُ إلى هنا؟

لم تردَّ ماكو على سُؤالِه ولم يَردَّ الآخَرون . لكنَّ هَدارةَ أدرَكَ أنّ الذي رَسمَ تِلكَ الصورةَ على الحجرِ كانَ مِنَ صِنفِه هو ، كانَ مثلَه مِنَ نوعٍ مُختلِفٍ . كانَ كائنًا له يَدان بدلًا مِنَ جناحَين . عِندَما لَم يكنْ لدى هَدارةَ ما يشغَلُه كانَ يُمسكُ بعودٍ ويرسمُ في الرَّملِ . كانَ يرسمُ طيورَ نعامٍ هو أيضًا ، أو أشجارًا أو طيورًا صَغيرةً . لَكِنَّهُ كانَ يفضِّلُ رسمَ طيورِ النَّعامِ .

– لا بدَّ أنّ الذي رسمَها له يَدانِ ، أشارَ هَدارةُ إلى الآخَرين .

لم يتلقَّ جوابًا مِنَ أحدٍ . كلُّ ما قالُه حوجٌ هو :

– يجبُ أنْ نتركَ هذا المَكانَ بسُرعَةٍ . يجبُ أنْ نعبرَ الصّحراءَ الصّخريّةَ .

انطلقَ حوجٌ بالسّيرِ بعدَ ذلكَ بسُرْعَةٍ وتبِعَهُ الآخَرونَ .

هكذا أتَوا إلى المَكانِ المَمنوعِ .

انتصبَتْ كثبانٌ رمليّةٌ عاليةٌ فَجأةً مِنَ خَلفِ البُقعةِ المُسطَّحةِ . كانَت الكُثبانُ صَفراءَ كالذّهَبِ ، لامعةً ، رَسمَت عليها الرِّيحُ أشكالًا مُتموِّجةً . تَرَكَ هَدارةُ يومَها السِّربَ لأوّلِ مَرّة . رَكَضَ باتّجاهِ الكثبانِ . كانَ الرَّمْلُ دافئًا وفي غايةِ النُّعومةِ . تَسلّقَ الجبلَ الأوّلَ زاحِفًا إلى أن وَصَلَ إلى

القِمّةِ . حينَ وَقَفَ على القِمّةِ رَفَعَ ذِراعَيه في الهواءِ تِجاهَ السَّماءِ العَميقةِ الزُّرقةِ ورَمى بِنَفسِهِ إلى الأسفلِ . تزحلَقَ على بَطنِهِ إلى أسفلِ الكَثيبِ .

وقفَت طُيورُ النَّعامِ في الأسفلِ ونَظَرَت إليه باستهجانٍ .

طيورُ النَّعامِ لا تلعبُ عادةً .

بدأَ هَدارةُ يَتَسَلّقُ الكَثيبَ الرَّمليَّ مرّةً أخرى . تذكّرَت قدماه نعومةَ هذا الرَّمْلِ . لَمْ يكنْ قد داسَ رملًا ناعمًا ولطيفًا مثلَ هذا في مَكانٍ آخرَ . تَسَلّقَت قدماه العاريتان إلى أعلى ، انزلَقَت إلى أسفلَ ثمّ أعادَ الكَرَّةَ . عِندَما وَصَل إلى قِمةِ الكَثيبِ رأى كَثيرًا مِنَ الجِبالِ الرَّمْليّةِ . كانَت رُفوفٌ حادّةٌ مِنَ الرَّمْلِ لا تُعدُّ ولا تُحصى . كانَتِ السّماءُ قاتمةَ الزُّرقةِ مِن فَوقِه ، ولِحُسنِ الحَظِّ كانَت هُناك بعضُ الغيومِ الصّوفيّةِ البيضاءَ الصغيرةِ . بينما كانَ واقفًا هُناك تحرّكَ شُعورٌ في داخلِه . كانَ هُناك حَدَثٌ يحاولُ أن يصعدَ إلى سطحِ ذاكِرته . شعرَ بالدفءِ والحُزنِ في آنٍ واحدٍ .

فاجأَه هُبوبُ الرِّيحِ الذي جَعَلَ الرَّمْلَ الناعمَ الدافئَ الأصفرَ اللّونِ يتصاعدُ ويلتفُّ حَوْلَهُ لبُرهةٍ وَجيزةٍ ، فوجدَ نفسَه فَجْأةً في غَيمةٍ رَمليّةٍ صَفراءَ ، وشعرَ بِحُزنٍ غامِضٍ . قلّصَ جَسدَه وَراحَ يرتجفُ دُوْنَ أنْ يفهمَ سَببَ ذلك . هلْ هو مُصابٌ بِمَرضٍ ما؟ أُصيبَ جِسمُه فَجْأةً بتشنُّجاتٍ تِلقائيةٍ مُبهَمةٍ .

وقفَت طيورُ النَّعامِ في الأسفلِ تنظرُ إليه وقد مَدّت أعناقَها إلى أعلى .

عِندَما انتهى الأمرُ قامَ مِنَ مَكانِه وتَسَلّقَ إلى أسفلِ الكَثيبِ . كانَ قد فقدَ مُتعةَ اللَّعِبِ . كانَت هُناك كلمةٌ تتردّدُ في رأسِه . فاطِمةُ . لَكِنَّهُ

لَمْ يكنْ يعرفُ معنى هذه الكلمةِ . كانَت هُناك حجارةٌ صَغِيرةٌ وبقايا عظامٍ عندَ أسفلِ الكَثيبِ ، وهُناك رأى شَيْئًا لَمْ يكنْ قد رآه مِن قَبْلُ . إنّهُ سِوارٌ مصنوعٌ مِنَ مَعدِنٍ أصفرَ ، لكن هَدارةَ لا يعرفُ ذلك . أمْسَكَ بذَلِكَ الشَّيءِ بيديه وشعرَ بدفْءٍ مُبهم يتدفّقُ منه إليهِ . لا بدَّ أنّ هُناك رابطًا بينَ هذا الشَّيْءِ المُستديرِ وتلك الكلمةِ الغامِضةِ ، فاطمةُ . حملَ هَدارةُ السِّوارَ بقيةَ النّهارِ .

– أعطني إياه ، قالَت ماكو ، أعطني ذلكَ الشَّيءَ الذي لا عِلمَ لي بما هو . إنَّهُ يسبّبُ لك الحُزنَ كَما أرى .

– لا ، أريدُ الاحتفاظَ به ، قالَ هَدارةُ بِنَكَدٍ .

قَلّبَ هَدارةُ السِّوارَ بينَ يديه ، عَضَّه ثمّ أدخلَ يدَه فيه ، حَيْثُ بقي مُعلّقًا حَوْلَ رُسْغِه .

لامَت ماكو نفسَها ؛ لأنَّها أدركَت ما حَدَثَ لِهدارةَ . لقد تذكّرَ شَيْئًا ، وأحسَّ بِالحُزنِ . كانَ المُرورُ بالمَكانِ الذي ضَيّعَ فِيهِ البشرُ طفلَهم خَطأً فادِحًا ، الطِّفْلَ الذي وَجدَتْه هي وحوجُ وأخذاه معَهما . أصبحَ الصَّبِيُّ منذُ ذلكَ الحينِ ابنَها هي .

عِندَما ذَهبوا للنّومِ في ذلكَ المساءِ ، قالَت ماكو مرّةً تِلوَ الأخرى :

– أنا أمُّك .

لم يفهمْ هَدارةُ لماذا تفوّهَت ماكو بتلك الحَماقاتِ . هي أمُّه بالطّبعِ .

اختفَتِ الشّمسُ خَلْفَ الكُثبانِ ، النجومُ ظهرَت في السماءِ وتسلَّلَ بَردُ اللّيلِ إليهم . سُرعانَ ما لاحظَت ماكو أنّ ابنَها شعرَ بِالبردِ ، فَرَدَت

جناحَيها الناعمَين الدافئَين وغطَّته بهما .

عِندَما تأكَّدَت مِنَ أنَّهُ نامَ بِعُمقٍ قامَت مِنَ مَكانِها ، خَلعَتِ السِّوارَ بِصعوبةٍ مِن حَولِ رُسغِه ، حملَته بمنقارِها وابتعدَت به مَسافةً قَصِيرةً . حفرَت بعدَ ذلكَ حُفرةً ودفنَتهُ في الرَّملِ .

الفصلُ الثامنُ

منْ دونِ مــاءٍ

استيقظَ هَدارةُ مُرتعِشًا ، وتحسّسَ يَدَه . السِّوارُ لَمْ يكنْ هُناك .

– أينَ ذلكَ الشَّيءُ المُستديرُ؟

– أيُّ شيءٍ مُستديرٍ؟

– الشَّيءُ المُستديرُ الذي وجدتُه البارحةَ ووَضَعتُه حَوْلَ رُسغي .

– لَستُ أدري ، لا بدَّ أنك أضعْتَه .

– كانَ حَولَ رسغي عِندَما ذهبتُ للنّوم .

لُحسنِ حظِّ النَّعامةِ الأمِّ ، ماكو ، قاطعَ قائدُ السِّرْبِ حديثَهما وحثّهما على السُّرْعَةِ . كانَ قد قرّرَ هو والنَّعامةُ الأمُّ أن يبتعدا عنِ المَكانِ المَمنوعِ هذا إلى أقصى مَكانٍ يمكنُهمُ الوُصُولُ إليه . لقد عَزما على دُخولِ جُزءٍ مِنَ الصَّحراءِ لَمْ يدخُلاه مِن قَبْلُ على الإطلاقِ .

– يجبُ علينا أن نُتابعَ مَسيرتَنا ، قالَ حوجٌ بحزمٍ ثمّ استطردَ :

– لا معرفةَ لنا بهذا الجوارِ . مِنَ الأفضلِ أن نتحرّكَ بسُرعةٍ لأنّنا لا نعلمُ أين سنجدُ الطّعامَ والماءَ .

وهكذا تابعَ السِّربُ الصّغيرُ مَسيرَتهُ . بعدَ أن كبرَ الفوجُ الأخيرُ مِنَ الصّغارِ وتركَ السِّربَ ، ولَم يعدْ هُناك سوى خمسةٍ مِن طيورِ النَّعامِ

بالإضافةِ إلى الصَّبِيِّ .

رَكَضوا بخُطًى خفيفةٍ مُتأرجحةٍ . في الطليعةِ كانَ حوجٌ . بعدَ حوجٍ سارَ هَدارةُ ، الابنُ المُفضّلُ ، الوَلَدُ الذي لَم ينبذوه أبدًا خارجَ السِّرْبِ وأرادوا أن يبقى معهم في السِّربِ دائمًا . كعادتِه حينَ يركُضون ، مالَ حوجٌ برأسِه بينَ حينٍ وآخرَ ليرى إذا بدأ التّعبُ على هَدارةَ . كانَ حوجٌ يخفّفُ سرعتَه دائمًا إذا لاحظَ التّعبَ على هَدارةَ .

هـدارةُ يحبُّ عادَةً الرَّكضَ في الصّباحِ الباكرِ حَيْثُ يكونُ الطّقسُ مايزالُ باردًا . لأنّهُ يَستَطيعُ عندَها الرَّكْضَ بذاتِ السّرعَةِ التي تركضُ بها طيورُ النَّعام تقريبًا . كانَ يُوسِّعُ خُطاهُ ويُحِسُّ بِشَعرِه الذي يتطايرُ فَوْقَ ظَهرِه . لَكِنَّهُ لَمْ يَشعُرْ بسعادةٍ لأيّةِ حَرَكَةٍ قامَ بها هذا الصّباحَ . كانَ عَلَيهِ أن يفكّرَ في كَثيرٍ مِنَ الأمورِ . كيفَ اخْتَفى ذلكَ الشَّيءُ المُستديرُ؟ لقد أحبّه كَثيرًا . أرادَ أن يكونَ بحوزتِه الآنَ . وما الذي حَدَثَ له في أعلى الكَثيبِ الرَّمْليّ البارحةَ؟ لَم يمرَّ بخبرةٍ مثلَ تِلكَ مِن قَبْلُ على الإطلاقِ . لقد أحَسَّ بسعادةٍ لا حدودَ لها وبحزنٍ لا حدودَ له في الوقتِ ذاتِه .

عِندَما رأى هَدارةُ حوجًا يَلتفتُ إلى الخلفِ لينظُرَ إليه ، رَكَضَ بسُرعَةٍ أكبَرَ . لَمْ يَشْعُرْ بالتعبِ حتى الآنَ . بينَما كانَ يَرْكُضُ بِخطواتٍ واثقةٍ ، خطواتٍ طويلةٍ ومتأرجحةٍ ، سَمِعَ أغنيةً تردّدُ نفسَها في رأسِه . لَمْ يسمعْ أيّةَ كلماتٍ بلْ سَمِعَ اللَّحنَ فَقَط . ثمّ ظَهَرَت في ذِهنِه تِلكَ الكلمةُ الغريبةُ مُجَدَّدًا ، فاطمةُ .

– ماما ماكو ، نادى إلى الخلفِ ، ما هي فاطمةُ؟

– لا عِلمَ لي بذلكَ على الإطلاقِ ، أجابته ماكو . أظنُّ أنَّهُ نوعٌ مِنَ

أنواعِ الدُّودِ . ألَمْ يحنِ الوقتُ لأنْ نتوقّفَ ونتناولَ بعضَ الطّعامِ؟ قالَت بسُرْعَةٍ حتى ينسى موضوعَ كلمةِ فاطمةَ التي كانَت متأكّدةً مِنَ أنّها كلمةٌ يستعملُها البَشرُ .

توقّفَت طيورُ النَّعامِ عنِ الرَّكضِ . حنى كلٌّ منها عُنقَه نَحْوَ الأرضِ ووجدَ ورقةَ نباتٍ هنا وأخرى هُناك . طيورُ النَّعامِ البالغةِ تفضّلُ أكلَ النّباتاتِ . فَعَلَ هَدارةُ مثلَما فَعَلَ الآخَرون لَكِنّهُ استعانَ بيديه لِيقتلعَ بعضَ النّباتاتِ الصّحراويّةِ معَ جذورِها وأكلَها بكاملِها ، الجذورَ ، والجذوعَ والأوراقَ . لَم يجدوا ماءً .

في أثناءِ حَرِّ الظُّهرِ الذي لا يُطاقُ ، أوَوا إلى النّومِ . بعدَ الظّهرِ تابعوا مَسيرَتهُم . لَمْ يجدوا حتّى الآنِ ماءً يَشرَبونَه . لَمْ تَشْعُرْ ماكو بِالقلقِ على ذاتِها . طيورُ النَّعامِ تستطيعُ أن تتحمّلَ العَطشَ لِفترةٍ طَويلةٍ ، لكنّها كانَت على عِلمٍ بأنّ هَدارةَ ينتمي إلى صِنفٍ آخرَ مِنَ المخلوقاتِ . هَدارةُ إنسانٌ في الحقيقةِ ، والبَشرُ كائناتٌ شديدةُ الحَساسيّةِ .

بعدَ شُروقِ الشّمسِ في اليَومِ التّالي تابَعَ السِّرْبُ مَسيرَتهُ . كانَ الرَّمْلُ في هذا المَكانِ رَماديَّ اللّونِ ، وكانَت هُناك أكوامٌ مِنَ الأحجارِ البُنّيّةِ الحادّةِ الأطرافِ .

بدأَ هَدارةُ يُحِسُّ بالتّعبِ ، لَمْ تعدْ خُطواتُه طَويلةً ، لَمْ يَقوَ على الرَّكضِ بسُرْعَةٍ ، ولاحظَ أنّ ماكو وحوجًا رَكَضا ببُطءٍ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الرَّكْضَ معَهما .

جفّفَ العطشُ فمَه وجعلَ شَفتيه تتشقّقانِ . عِندَما توقّفوا لتناوُلِ الطّعامِ بَحَثَ عن نباتاتٍ سَميكةِ الأوراقِ . هو يَعلَمُ أنّ أوراقَ النّباتاتِ السميكةَ تحتوي على المَاءِ . غيرَ أنّ أوراقَ النباتاتِ لَمْ تَكُنْ كافيةً . نما

العطشُ بداخِله . فَعَلَ كَما كانَ يفعلُ في صِغرِه ، حينَ يداهمُه العَطشُ ، إذ أنَّهُ وَضَعَ إبهامَه في فمِه . مِنَ حينٍ إلى آخرَ ، رَكَضَ في اليَومِ التّالي وهو مايزالَ واضعًا إبهامَه في فمِه .

لَمْ يقوَ هَدارةُ في اليَوْمِ الثالثِ على الرَّكضِ فاضطرَّ إلى الاكتفاءِ بالسّيرِ .

ثم صَمَتَ اللّحنُ في رأسِه ولم يعُدْ يفكِّرُ حتى بذَلكَ الاسمِ الغريب ، فاطمة .

تركوا الصّحراءَ الحَجريّةَ خَلْفَهُم ودخلوا مَكانًا مسطَّحًا تَمامًا يغطّيه رملٌ زهريُّ اللّونِ . في منتصَفِ النّهارِ وفي أشدِّ الحرِّ تثاقلَ الهواءُ فَوْقَ الأرضِ ورأى هَدارةُ بِركَةً مائيّةً لامعةً . كانَ يَعلَمُ تَمامًا أنّها لَمْ تَكُنْ بِركًا مائيّةً حقيقيّةً ، بل سرابًا ، ورغمَ ذلكَ لَمْ يتمكّنْ مِنَ الامتناعِ عنِ الشّوقِ إلى الماءِ . لِيَتَمَكّنَ مِن تحمّلِ العَطشِ راحَ يحلمُ بتلكَ المرّةِ في صِغَرِه ، عِندَما أيقظتهُ أمُّهُ مِنَ النّومِ بمُداعبةٍ مِن جناحِها ، ثمّ سارَت به بعدَ ذلكَ إلى بركةِ ماءٍ . حَاوَلَ أن يتذكّرَ الإحساسَ الذي انتابهُ حينَ غطّسَ يدَيه في الماءِ البارِدِ وَراحَ يَشرَبُ ثمّ يَشرَبُ ثمّ يَشرَبُ . . .

انتفخَ لسانُه داخِلَ فمِه وصارَ يرى برقًا يشتعلُ أمامَ عينيه ممّا جَعَلَهُ يحسُّ بأنّهُ على وشكِ التّقيُّؤِ . كانَ مُنهكًا جدًّا الآنَ ، ولم يقوَ إلّا على السّيرِ البطيءِ . طيورُ النّعامِ كانَت مُنهكةً أيضًا . تقدّمَ السِّربُ بغايةِ الصّعوبةِ إلى الأمامِ .

في لَحظةٍ متأخّرةٍ مِن بعدِ ظُهرِ ذلكَ اليَوْمِ توقّفَ حوجٌ فَجْأةً عنِ السّيرِ وأصدرَ فحيحًا حادًّا . لا يفعلُ ذلكَ عادَةً ؛ لذلكَ تسمّرُ كلُّ أعضاءِ السِّرْبِ

في مَكانِهم . كانوا يَعلَمُونَ أنّ هُناكَ سببًا وجيهًا لإصدارِه ذلكَ الفحيحَ .

سارَ حوجٌ جانبًا وحَدَّقَ إلى الرَّمْلِ . جرَّ هَدارةُ قدمَيه بعناءٍ خَلْفَ حوجٍ ورأى السّببَ الذي أيقظَ غضبَ أبيه . كانَ في الرَّمْلِ عُشُّ نَعامٍ مهجورٌ . كانَ في داخلِ العُشِّ قشورُ بَيضاتٍ تكسّرَت . كَما كانَت هُناكَ أربعُ بَيْضاتٍ كاملةٍ وكانَ في قشرةِ كلٍّ منها ثُقبٌ مُستديرٌ صَغِيرُ الحَجمِ . أحنى هَدارةُ جسدَه إلى أسفلَ وغرسَ إصبعَه في إحدى البَيضاتِ ورفعَها مِن مَكانِها . كانَت البَيضَةُ فارغةً . لا بدَّ أنّ النسورَ المصريّةَ تسبَّبت بالثُّقبِ لتتمكّنَ مِنَ امتصاصِ مُحتواها . غرسَ أصابعَه في الحُفرِ الأربعِ وحملَ البَيضاتِ الفارغةَ . تَمَكَّنَ بهذه الطّريقةِ مِن حملِ البَيضاتِ الأربعِ وأخذِها معَه . كانَ يريدُ الاحتفاظَ بها .

– اتركْ البَيضاتِ في مَكانِها ، قالَت ماكو ، لماذا تريدُ دائمًا أن تحملَ الأشياءَ معَك أينما ذَهبْتَ؟ هذا غيرُ ضروريٍّ الآنَ . أنتَ الآنَ مُرهقٌ تَمامًا عطشانُ جدًّا . أنت بحاجةٍ إلى كلِّ قواك . ارم البيضاتِ!

لكنّ هَدارةَ كانَ قد وَصَلَ إلى عمرٍ جَعَلَهُ لا يكترثُ أحيانًا لما تقولُه أمُّه . ما حَدَثَ الآنَ هو أنَّهُ استشاطَ غَضبًا . لَمْ يتفوَّه بشيءٍ لَكِنَّهُ أصرَّ على أن يحملَ البَيضاتِ الأربعَ بقيةَ ذلكَ النّهارِ .

حينَ استلقى لينامَ تِلكَ اللَّيلةَ وَضَعَ البَيضاتِ بالقُرْبِ منه . وبَّخَتهُ ماكو على ذلك .

– كفّي عنِ النَّقِّ ، هذا كلُّ ما قالَه لها .

نامَ تِلكَ اللَّيلةَ بعُمقٍ ولم يستيقظْ في الصّباحِ معَ الآخَرين . اضّطرَت

ماكو إلى أن تلكُزَه بقدمِها . عِندَما نَهَضَ كانَ كلُّ شيءٍ يدورُ مِنَ حَولِه . رأى النجومَ في منتصفِ النّهارِ . كانَ لسانُه منتفخًا أكْثَرَ مِنَ السّابقِ . كانَ فمُه جافًّا وكأنّه كانَ قد أكلَ كمّيةً مِنَ الرَّملِ .

سمعَ ماكو وحوجًا يتحدّثانِ . قالا إنّهُ في حالٍ وقعَ وفقدَ قواه ، سيحاولان أنْ يحملاه .

سارَ الوَلَدُ متثاقلًا وبكَثيرٍ مِنَ البُطءِ .

كلَّما تنفّسَ شعرَ بالألمِ .

عِندَما نَظَرَ إلى الأفقِ كانَ يراه يتأرجحُ إلى الأمامِ والخلفِ . أحَسَّ كأنَ الضّوءَ الحادَّ جرحَ عينَيه . أرادَ أن يسيرَ وهوَ مُغمضُ العينينِ . أغمضَ هَدارةُ عينَيه فعلًا في النّهايةِ وسارَ مهتديًا بطائرِ النَّعامِ الذي كانَ يسيرُ أمامَه . إلى متى سيقوى على تحمُّلِ العَطشِ؟

عانَت طيورُ النَّعامِ مِنَ العطشِ أيضًا لكنّ معاناتِها لَمْ تَكُن بحدّةِ معاناةِ الولدِ . كانَ كلٌّ منهم يسيرُ فاتحًا مِنقارَه .

– ما ذلكَ السّوادُ هُناك؟ تساءَلَت ماكو .

حاسّةُ البَصرِ عندَ طيورِ النَّعامِ قويّةٌ جدًّا ، لكنَّ الصحراءَ خادعةٌ . ففي صحراءَ مسطّحةٍ تَمامًا يُخيّلُ للمرءِ حينَ يرى حجرًا صَغيرًا أنَّهُ يرى جبلًا عاليًا . رأوا جَميعًا الآنَ شَيْئًا أَسودَ يرتفعُ فَوقَ سطحِ الأرضِ . ربَّما كانَ مجرّدَ حجرٍ صَغيرٍ . لكنّ الجَميعَ أحسّوا بالفرحِ وانبعاثِ الأملِ في نفوسِهم . ذلكَ الشَّيْءُ الأَسْوَدُ بدا حقًّا وكأنّه بئرٌ .

كانَت بئرًا بالفعلِ .

انْحَنى هَدارةُ وطيورُ النَّعامِ فَوْقَ الحافّةِ . كانَتِ البئرُ عبارةً عنْ حُفرةٍ مُحاطةٍ بحجارةٍ ، وفي أسفلِ الحُفرةِ ظهرَ المَاءُ لامعًا كمرآةٍ . فتحَ هَدارةُ فمَه . لكنْ كيفَ يرفعونَ المَاءَ مِن أعماقِ البئرِ؟

القوافلُ التي تتوقّفُ عندَ الآبـارِ الموجودةِ في بَعْضِ الأماكنِ في الصَّحراءِ ، يجلبُ أناسُها معهم قِرَبًا جلديّةً يرمونها في الماءِ ويرفعونها بِوساطةِ الحبالِ المربوطةِ في أطرافِها . لكنّ طيورَ النَّعامِ وهَـدارةَ لا يعرفون شَيْئًا عن هذا الأمرِ . ثمّ إنّهُ لَمْ يكنْ بحوزتِهم لا قربٌ جلديّةٌ ولا حبالٌ . لكنّ هَدارةَ المُنهَكَ راحَ ينظُرُ إلى بَيضاتِ النَّعامِ الأربعِ الفارغةِ ، التي صمّمَ على حملِها بعِنادٍ . لو تَمَكَّنَ مِنَ خفضِها إلى عُمقِ البِئرِ سيتسنّى لهُ ملؤُها بالمَاءِ . غيرَ أنّ الماءَ كانَ بَعيدًا عن متناولِ يدَيه .

عندَها قامَ بشيءٍ تحدّثَت به طيورُ النَّعامِ طَوالَ سَنواتٍ قادمةٍ . رَفَعَ هَدارةُ الذي أنهكهُ العطشُ إحدى ساقَيهِ فَوْقَ حافّةِ البئرِ . رَفَعَ بعدَ ذلكَ السّاقَ الأخرى وجلسَ على الحافّةِ بينما تدلّت ساقاه داخِلَ البئرِ .

– ما الذي تفعلُه؟ حَذارِ ، قالَت أمّهُ النَّعامةُ مليئةً بالقلقِ .

كانَ هَدارةُ يمسكُ ببيضةٍ في كلِّ يدٍ . وَضَعَ بعدَ ذلكَ ساقَيه على الحافّةِ المُقابلةِ . لَمْ يكنْ له عِلمٌ مِن أينَ أتتهُ تِلكَ الفكرةُ . كلُّ ما هُناكَ أنّهُ رأَى بينَه وبينَ نفسِه أنَّ الأمرَ كانَ مُمكنًا . خفّضَ جسدَه بِبُطءٍ وجعلَه يتدلّى داخِلَ البئرِ . جَعَلَ ظهرَه يلتصقُ بالحجارةِ الخشنةِ وثبّتَ قدمَيه فَوقَ الحافّةِ المقابلةِ .

– حذارِ يا هَدارةِ ، قالَت ماكو التي كانَ يملؤُها القلقُ .

أحسَّ هَدارةُ بالحجارةِ حينَ راحت تخدِشُ جلدَ ظهرِه .

اَلَمتهُ عضلاتُ ساقَيه لكنّ لهفتَه إلى الماءِ دفعَتْه إلى أسفلَ . إذا لَمْ يحصلْ على ماءٍ يَشْربُه الآنَ سيموتُ على أيّ حالٍ . لُحسنِ الحَظِّ عادَت إليه قُواهُ الآنَ وهو في أمسِّ الحاجةِ إليها . تَمكَّنَ مِنَ النّزولِ إلى داخلِ البئرِ بِبُطءٍ قاطعًا القليلِ مِنَ السنتيمتراتِ بينَ لحظةٍ وأخرى . عِندَما أحَسَّ بالمَاءِ يبلّلُ مؤخّرتَه ، غطّسَ إحدى البيضتينِ في المَاءِ ، رفعَها نَحْوَ فمِه وَراحَ يَشْرَبُ . لَمْ يَشْرَبْ شَيْئًا بهذه العُذوبةِ منذُ تِلكَ المرَّةِ حينَ كانَ طفلاً صَغِيرًا وشربَ مِنَ النّبعِ . عِندَما روى عَطشَه ملأَ البيضتينِ بالمَاءِ وبدأَ التَسَلّقَ بعناءٍ إلى أعلى البئرِ . عِندَما رَفَعَ رأسَه إلى أعلى رأى بُقعةً زرقاءَ مِنَ السّماءِ كَما رأى خمسَ وجوهٍ لنعاماتٍ اعتراها الذُّعرُ .

كانَ عندَها قد بلغَ أقصى مقدرتِه . لَمْ تعدْ لديه قوّةٌ على فَعلِ أيِّ شيءٍ الآنَ .

ماذا سيحدثُ لو وقعَ في الماءِ؟ لَمْ تكنْ لديه خبرةٌ بالمياهِ العميقةِ . كلُّ ما رآهُ مِنَ المِياه خلالَ حياتِه هو مستنقعاتٌ ضحلةٌ في الصّحراءِ . كلُّ غرائزِه كانَت تشيرُ إليه بأنّ الماءَ الذي لمعَ مِن تحتِه كانَ في غايةِ الخُطورةِ .

– لا تتوقّفْ عنِ التَسَلّقِ إلى أعلى ، قالَت له النَّعاماتُ .

– لديكَ ما يكفي مِنَ القُوّةِ .

– ستنجحُ في الوُصُولِ إلى أعلى البئرِ .

اَلَمَهُ ظهرُه . ارتجفَت ساقاه . بَيْضتا النَّعامِ الممتلئتانِ بالمَاءِ كانَتا ثقيلتينِ وسبّبَتا له ألمًا فظيعًا في أصابعِه . لكنّ عطشَه ارتوى . لنْ يسمحَ لنفسِه بفكِّ قبضتِه عنِ البيضتينِ . لَمْ يكن بوسعِه سوى التَسَلّقِ إلى أعلى سنتيمترًا بعدَ الآخَرِ . بعدَما تَمكَّنَ مِنَ وَضعِ إحدى ساقَيه خارجَ البئرِ

في نهايةِ المَطافِ ، أجهشَ بالبُكاءِ . وَضَعَ هَدارةُ البيضتينِ على الأرضِ وأسندَهما إلى حافّةِ البئرِ حتّى لا ينسابَ منهما المَاءُ إلى الخارج ، قبلَ أنْ يسيطرَ عَلَيهِ البُكاءُ كلّيًا .

داعَبَت ماكو خدَّه . ليسَ في الكونِ ما يحزنُها كَما تحزنُ عِندَما ترى هَدارةَ يبكي . لا تبكي صغارُ النَّعامِ عادةً ، لذلكَ لا تفهمُ ماكو طبيعةَ الدّموعِ .

مالَ هَدارةُ بوجهِه على جَناحِ ماكو ، هدّأَ نفسَه ، كفَّ عنِ البُكاءِ وَراحَ يحفرِ حُفرةً صَغِيرةً في الرَّمْلِ فرّغَ فيها الماءَ الذي كانَ في إحدى البَيضاتِ لتتمكنَ النَّعاماتُ مِنَ الشّربِ ، ثمّ صبَّ المَاءَ الذي كانَ في البَيضَةِ الأخرى .

تمدّدَ أفْرادُ سربِ النَّعامِ فَوْقَ الرَّمْلِ لينامُوا اللَّيلَ ، سعداءَ بَعدَما ارتوى عَطشُهم . تمدّدَ هَدارةُ واضعًا البَيضاتِ الأربعَ بجانبِه . كانَت كلُّ واحدةٍ منها مليئةً بالمَاءِ .

إذ إنّ هَدارةَ تَسَلّقَ مرّتينِ أُخرَيينِ إلى داخلِ البئرِ حَيْثُ ملأَ البَيضاتِ ماءً ثمّ عادَ وتَسَلّقَ الجُدرانَ إلى الخارجِ .

الفصلُ التاسعُ

هجومُ بناتِ آوى

استيقظَ هَدارةُ مِنَ نومِهِ في مغارةٍ دافئةٍ ناعمةٍ تكوّنَت مِنَ ريشِ النَّعام . كانَ قد حلمَ خلالَ اللَّيلِ ، ولذَلِكَ حَاوَلَ أن يتمسّكَ بالحلمِ ليبقى في ذهنِه ، لكنّ الحلمَ انسلَّ مِنَ ذاكرتِه واخْتَفى كأنّه أفعى . كلُّ ما تبقى لديه مِنَ الحلمِ وهو ممدّدٌ في مَغارةِ الرّيشِ الدافئةِ تَحْتَ ماكو ، هو حَرَكَةٌ هزّازةٌ ، لحنٌ عذبٌ ودفءٌ يغطّي ظهرَه ، حارٌّ كأشعّةِ الشّمسِ .

بقيَ هَدارةُ ممدّدًا في مَكانِه ساكنًا ليستبقي على الأقلِّ الشُّعورَ الذي خلَّفهُ الحلمُ في نفسِه . قطعَت ماكو سحرَ الحلمِ حينَ نَهَضت مِنَ مَكانِها ، رفرفَت بجناحَيها ، ابتلعَت بعضَ الحصى وراحت تبحثُ لنفسِها عن طَعامٍ . عِندَما انتهَت مِنَ تناولِ طَعامِها قامَ هَدارةُ بمُحاوَلةٍ جديدةٍ :

– أين اخْتَفى ذلكَ الغَرضُ المستديرُ الذي وجدتُه في أسفلِ الكثيبِ؟

– لا أذكرُ أنّكَ وجدْت شَيْئًا . هل تذكرونَ ذلك؟ قالَت مخاطبةً أفْرادَ السِّرْبِ الآخَرينَ .

– لا ، لا ، لا نذكرُ ذلكَ إطلاقًا ، ردّدَ الآخَرونَ وبَدَوا متأكّدينَ ممّا قالوه .

– لا بدَّ أنّك حلمْتَ ذلك . كلُّ ما فعلْتَه هو أنّك تَسَلّقْتَ إلى أعلى الكَثيبِ ونزلْتَ إلى أسفلِهِ متزحلقًا . هذا كلُّ ما حَدَثَ يومَها ، قالَت ماكو .

كانَ لدى هَدارةُ كَثِيرٌ مِنَ الصّفاتِ التي أثارَتِ استغرابَ ماكو . إحدى هذه الصفاتِ هو أنَّهُ كانَ يحلمُ أحلامًا مميّزةً . كانَ يحدِّثُها عن أحلامِه أحيانًا بعدَ أنْ يستيقظَ مِن نومِه . لكنّ أحلامَه لَمْ تَكُنْ تشبهُ أحلامَ طيورِ النَّعامِ . طيورُ النَّعامِ تحلمُ غالبًا بالطَّعامِ ، لكنّ هَدارةَ لَمْ يحلمْ بذلك . عِندَما كانَ يحاولُ سردَ أحلامِهِ عليها كانَت تعجزُ عن فهمِ ما يقولُ .

– هذا بالتّأكيدِ حلمٌ آخرُ مِن أحلامِك ، قالَت ماكو وانحَنَت في مُحاوَلةٍ لاقتلاعِ جذرٍ كانَ يتشبّثُ بالأرضِ بعنادٍ .

انطلقَ السِّرْبُ في مسيرتِه . كانوا يتنقّلونَ اليَومَ في منطقةٍ تملؤُها تلالٌ رمليّةٌ تكتسي بلونٍ بنّيٍّ متفاوتِ الدّرجاتِ . وكانَت هُناك مجموعاتٌ مِنَ الشّجرِ منتصبةً هنا وهُناك .

كانَ هَدارةُ يحملُ اثنتين مِنَ بَيضاتِ النَّعامِ إذْ عجزَ عنْ حملِ المزيدِ لأنّهم كانوا يتنقّلونَ بسُرْعَةٍ . قَبْلَ أنْ يستمرّوا في مِسيرتِهم قامَ هَدارةُ بفعلٍ أثارَ استغرابَ والدَيه ؛ إذْ إنّهُ دفنَ البيضتينِ الأُخرَيينِ في الرَّمْلِ بعدَ أن ملأهُما بالمَاءِ وقالَ :

– لقد دفنْتُ هنا بينَ حجرينِ مدبّبينِ تنبتُ بينَهما شُجيرةُ بَيْضتي نعامٍ مملوءتَينِ بالمَاءِ . لقد سددْتُ فتحةَ كلٍّ منهما بقليلٍ مِنَ العُشبِ . إذا عُدْنا إلى هنا سيكونُ كلٌّ منّا على علمٍ بأنّه يمكنُنا إيجادُ المَاءِ هنا .

كانَ يحملُ بَيْضتينِ مليئتَينِ بالمَاءِ . كانَ المَاءُ ثقيلًا داخِلَ البيضتينِ ممّا جَعَلَ هَدارةَ يحسُّ بألمٍ لا يُطاقُ في أصابعِه التي غرزَها في ثُقبِ كلٍّ مِنَ البيضتينِ . اضطرَّه هذا إلى نقلِها وحملِها بينَ ذراعَيه . هذا سبّبَ له التّعبَ في ذراعَيه ممّا اضطرَّه إلى حملِها بأصابعِه ثانيةً .

جعلَه هذا يفكّرُ بأمرينِ ؛ أوّلًا : ماذا لو استطاعَ أن يحملَ البَيضاتِ داخِلَ شيءٍ ما يجعلُه قادرًا على حملِ المزيدِ منها؟ ثانيًا : حَدَّقَ إلى يديه . لماذا كانَ شكلُه على ما هو عليه؟ لماذا يختلفُ شكلُه كلّيًا عن شكلِ والدَيه؟ لقد رأى صغارَهما يخرجون مِنَ البيضِ مرّةً تلوَ الأخرى لكنّهما لَمْ يرزقا قطُّ بطفلٍ مِنَ نوعِه .

في منتصفِ النّهارِ ، عِندَما كانَ الحرُّ يتسبّبُ بشرارٍ يتطايرُ أمامَ عينيه ، توقّفَ سربُ النَّعامِ عن مسيرتِه ولجأَ إلى ظِلالِ بَعْضِ الأشجارِ . كانَت الشّمسُ واقفةً فَوْقَ الشّجراتِ التي رَمَت ظلالاً نحيلةً فَوْقَ الرَّمْلِ . قامَ هَدارةُ بما يقومُ به كلَّما توقّفَ السِّرْبُ عن مسيرتِه بالقُرْبِ مِنَ الأشجارِ ، أيْ تَسَلّقُ الأغصانِ التي لَم تستطعْ النَّعاماتُ الوُصُولَ إليها . قامَ بعدَ ذلكَ بقطفِ الأوراقِ والثّمارِ ورمى بها إلى الآخَرين . كانَ هَدارةُ يأكُلُ أيضًا مِنَ الأوراقِ والثّمراتِ الصّغيرةِ القاسيةِ . كانَ الحرُّ لا يُطاقُ ، لذلكَ نزلَ هَدارةُ مِن فوقِ الشّجرةِ واستلقى الجَميعُ على الرَّملِ لينامُوا خلالَ تِلكَ الفترةِ مِنَ الحرِّ الذي لا يمكنُ تحمّلُه . حشرَ هَدارةُ والنَّعاماتُ أنفسَهم في بقعةِ الظّلِّ الضّيّقةِ التي وفّرتها لهمُ الشُّجراتُ . أغمضَ عينيه متمنّيًا أنْ يعودَ إليه الحلمُ الذي رآهُ في أثناءِ اللَّيلِ . في اللَّحظَةِ التي كانَ فيها على وَشكِ أن يغفوَ اشتمَّ رائحةً غريبةً ، أحَسَّ بحركةٍ غيرِ عاديّةٍ وانتصبَ

واقفًا على ساقَيه .

كانَت ثلاثةٌ مِنَ بناتِ آوى تزحفُ بمُحاذاةِ الأرضِ في مُحاوَلةٍ للاقترابِ مِنَ السّربِ . رأى عيونَها الصّفراءَ وأفواهَها المفتوحةَ .

كانَ بالقُربِ منه بعضُ الحجارةِ لحُسنِ الحظِّ . أمْسَكَ بالحجرِ الأقربِ إليه ، رماهُ تجاهَ بناتِ آوى ورَكَضَ نحوها في الوقتِ ذاتِه ملوِّحًا بذراعَيه .

فتحَ فمَه دُونَ أن يطلِقَ منه أيّةَ صرخةٍ . كانَ هَدارةُ أخرسَ كطيورِ النَّعامِ تمامًا .

نَظَرَ راضيًا إلى بناتِ آوى الثلاثةِ حينَ غادرَتِ المَكانَ راكضةً دُوْنَ أن تنْظُرَ إلى الخَلفِ . لَكِنّهُ أدْرَكَ أنّها ستكونُ في الجِوارِ ، وأنّها ستعودُ حالما يستغرقُ هو وبقيّةُ السِّرْبِ في النّومِ . لَمْ يجرؤْ على النّومِ مُجدّدًا . أخذَ معَه حَجرًا وتَسَلّقَ إلى أعلى الشّجرةِ ليقومَ بالحِراسةِ .

طيورُ النَّعامِ التي استيقظَت مِنَ نومِها بسببِ الضّجّةِ ورائحةِ بناتِ آوى ، وقفَت جنبًا إلى جنبٍ ترتعشُ خوفًا .

– عودوا إلى النّومِ ، قالَ هَدارةُ . سأقومُ بحراستِكم .

هدأَت نفوسُ أفْرادِ عائلتِه إلى درجةِ أنّهم عادُوا وتمدّدوا في الظِّلِّ مِنَ جَديدٍ .

– ماذا سيكونُ مصيرُنا مِنَ دونِكَ؟ أشارَت ماكو إليه مليئةً بالفخرِ .

جلسَ هَدارةُ في أعلى الشّجرةِ وَراحَ يفكّرُ . نَظَرَ إلى يدَيه ثانيةً . رَفَعَ يدَهُ اليمنى وَراحَ يُحَدِّقُ إليها . كانَتِ الأيدي جيدةً في نَظَرِه . لماذا لَمْ يكنْ لطيورِ النَّعامِ أيادٍ أيضًا؟ أرادَ أنْ يعرفَ لماذا كانَ مختلفًا كلّيًا عن أعضاءِ السِّرْبِ الآخَرينَ ، لَكِنَّهُ استحسنَ أنْ يسألَ ماكو عنِ الأمرِ عِندَما

يكونانِ منفردَينِ بَعِيدًا عن مسامعِ الآخَرينَ .

جعلَ الحرُّ طيورَ النَّعامِ تنامُ مجدَّدًا وبعدَ لَحَظاتٍ كانَت تغطُّ في نومٍ عميقٍ . حينَ تدلّى رأسُ هَدارةَ فَوْقَ صدرِه وقعَ الحَجرُ مِنَ يدِه . كانَ لحسنِ الحَظِّ يجلسُ على غُصنٍ اتّخذَ شكلَ شوكةٍ ولذَلِكَ لَمْ يقعْ مِنَ مَكانِه رغم أنَّهُ استغرقَ في النّومِ .

من فَوقِ التِّلالِ البُنّيّةِ الصّغيرةِ ظهرَت رؤوسُ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسةِ ثانيةً ، ثمّ ظهرَت أجسادُها بعدَ بُرهةٍ . كانَت تتقدّمُ بِبُطءٍ هذه المرّةُ . أتَتْ زاحفةً بُمحاذاةِ الأرضِ . كانَت بناتُ آوى تعاني مِنَ الجُوعِ لأنّها لَمْ تحصلْ على فرائسَ كبيرةٍ منذُ عدّةِ أسابيعَ . كانَت هذه الحَيَواناتُ تعلمُ أنّ فرصتَها الوحيدةَ للنّجاحِ في قتلِ طائرِ نعامٍ كَبيرٍ تكمنُ في الانقضاضِ عَلَيهِ في أثناءِ نومِه . كانَت طيورُ النَّعامِ الخمسِ تغطُّ في نومٍ عميقٍ . هَدارةُ أيضًا كانَ يغطُّ في نومٍ عميقٍ .

رائحةُ طيورِ النَّعامِ أثارَت نفوسَ بناتِ آوى . عِندَما كانَت على بُعدِ عشرةِ أمتارٍ مِنَ الطُّيُورِ الضخمةِ ، تجمّعَت استعدادًا للانقضاضِ عليها . رَكَضَتِ الحَيَواناتُ الثلاثةُ في اللَّحظَةِ ذاتِها . رَكَضَت تجاهَ ماكو التي كانَت تنامُ على الطّرفِ الخارجيِّ للسِّربِ . لكنْ قبلَ أنْ تصلَ الحَيَواناتُ المُفْتَرِسةُ إلى هدفِها أتاها شَيْءٌ ضخمٌ ومفزعٌ بسُرْعَةٍ مذهلةٍ مِنَ أعلى الشجرةِ . كانَت تفوحُ مِن ذلكَ الشَّيءِ الضّخمِ الغريبِ المخيفِ رائحةٌ بشريّةٌ ، وعِندَما بدأَ يلوّحُ بذراعَيه هربَت بناتُ آوى بهلعٍ مِنَ المَكانِ دُونَ أن تَشْعُرَ برَغبَةٍ في العودةِ إلى هذا المَكانِ ثانيةً .

عِندَما حلَّت برودةُ المساءِ تابعَت طيورُ النَّعام مسيرتَها بصُحبةِ الصّبيّ . لَمْ يكنْ هذا الجزءُ مِنَ الصَّحراءِ الكبرى مسطَّحًا بلْ كانَ صحراءَ مليئةً بالتِّلالِ المُغطّاةِ بشُجيراتٍ يابسةٍ ميّتةٍ ظهرَت مِنَ الرَّملِ في كلِّ مَكانٍ وكأنّها رؤوسٌ لمخلوقاتٍ جِنّيّةٍ وقد غطَّتها شعورٌ شعثاءُ . لَمْ يجدوا ماءً ، لكنّ هَدارةَ أصرَّ على حملِ البَيضاتِ الخاويةِ أينَما ذهبوا . قالَ إنَّهُ لا يمكنُ معرفةُ إذا ما كانوا سيحتاجونَها قريبًا .

ساروا مُدّةَ يومَينِ آخرين دُونَ أنْ يعثروا على الماءِ . أكلوا كلَّ ما عثروا عَلَيهِ مِنَ نباتٍ ،لكنّ ذلكَ لَمْ يكفِ . سُرعانَ ما دهمَهمُ العَطشُ مُجدّدًا .

تأخّرَ هَـدارةُ عنِ الآخَرينَ ، والقافلةُ الصغيرةُ سارَت بِبُطءٍ أكثرَ فأكثرَ . حوجُ ، الذي كانَ قدِ اتّخذَ القرارَ بانتقالِهم إلى جُزْءٍ مجهولٍ مِنَ الصَّحراءِ ، بدأَ يلومُ نفسَه . ماذا يفعلونَ هنا؟ لا بدّ أنْ تكونَ عاقبةُ هذه المَسيرةِ وَخيمةً . لَكِنَّهُ في الحقيقةِ كانَ يَعلَمُ لماذا أتَوا إلى هنا . كانَ قد قرّرَ الانتقالَ إلى الجزءِ المجهولِ مِنَ الصَّحراءِ لأنَّ ماكو أرادَتْ الابتعادَ إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ عنِ المَكانِ الذي أضاعَ فِيهِ البشرُ هَدارةَ في يومٍ مِنَ الأيّامِ . لا شكَّ في أنّ ذلكَ القرارَ كانَ خطأً فادحًا . الطَعامُ قليلٌ جِدًّا في هذا المَكانِ والمَاءُ مفقودٌ . أليسَ مِنَ الأفضلِ أنْ يعودوا مِن حَيْثُ أتَوا؟

يَستَطيعُون العودةَ إلى المَكانِ الذي دفنَ فِيهِ هَدارةُ البيضتينِ المليئتينِ بالماءِ ويتابعونَ بعدَ ذلكَ الطّريقَ إلى البئرِ التي نجحَ هَدارةُ بالتّسَلّقِ داخلَها . لا ، هذه فكرةٌ غبيةٌ بلا شكٍّ . إذا عادُوا الآنَ سيصلون إلى البيضَتينِ الدفينتَينِ بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ وسيصلونَ إلى البئرِ بعدَ أربعةِ أيّامٍ . هلْ لديهمُ القوّةُ لفَعَلِ ذلك؟ كانَ حوجُ فريسةً للشّكِّ .

جَرّوا أقدامَهم فَوْقَ الأرضِ بِبُطءٍ إلى الأمامِ .

طرأَ على السّماءِ مِنَ فَوْقِهم تغيّرٌ بطيءٌ . السّماءُ الزرقاءُ حُجِبَت فَجْأةً خَلْفَ غيومٍ مالَ بياضُها إلى اللّونِ الرماديِّ . اختفَتِ الشّمسُ بعدَ فَترَةٍ وجيزةٍ ثمّ أَتَتْ ذباباتٌ تَزِنُّ وترتطمُ بذراعِ هَدارةَ الذي كانَ يَنظُرُ إلى جَرادةٍ حطَّت على إحدى الشُّجيراتِ الجافَّةِ . حَاوَلَ أن يمسكَ بالجرادةِ ليأكلَها لكنّ محاولاتِه فشلَت .

الذباباتُ والجرادةُ كانَت علاماتِ خيرٍ . كانَت علامةً على تساقطِ المطرِ . توقّفَ أفْرادُ السِّربِ الضّئيلِ ، رفعوا رؤوسَهم حَاوَلوا شمّ رائحةِ الهَواءِ . شعروا بأنَّ الرِّيحَ كانَت مختلفةً الآنَ بسببِ الرّطوبةِ . كانوا جَميعًا يأملونَ بتساقُطِ المطرِ . وهذا ما كانَت تأملُه كلُّ حَيَواناتِ الصَّحراءِ ونباتاتِها وأُناسِها أيضًا .

في أواخرِ عصرِ ذلكَ اليَومِ تساقطَتِ القطراتُ الأولى .

الفصلُ العاشرُ

هل تعنينَ أنّني لَستُ طائرَ نَعامٍ حَقيقيًّا؟

فتحَ هَدارةُ ذراعيَه ، رَفَعَ وجهَه إلى أعلى ورَكَضَ بسُرْعَةٍ هائلةٍ تِجاهَ عُمقِ الصّحراءِ . توقّفَ فَجْأةً وبقيَ مُسمَّرًا في مَكانِه بذراعَيه المفرودتينِ ووجهِه المرتفعِ إلى أعلى . سقطَت قطراتُ المَطرِ الأولى على وجهِه وكتفَيه ، قطراتٌ انسابَت إلى أسفلَ راسمةً خطوطًا على جلدِه المُغبَرّ .

لم يفارقْه القلقُ . لا بدَّ أنْ يتساقطَ المزيدُ مِنَ المطرِ . هذه القطراتُ الضئيلةُ لا تكفي . فتحَ فمَه ومدَّ لسانَه في الهَواءِ . ما حَدَثَ بعدَ ذلكَ تحوّلَ إلى أقوى ذكرى في حياتِه وصارَ فيما بعدُ يتذكّرُها قبيلَ النّومِ . كانَت ذكرى تحملُ شَيْئًا مِنَ الجنّةِ وشَيْئًا مِنَ الجحيمِ .

ازدادَ تساقطُ المطرِ وأحسَّ بالقطراتِ التي حطَّت على لسانِه وبلّلَت شفتَيه الجافّتَينِ وفمَه العطشانَ .

تمكّنَ مِنَ تفسيرِ الصّوتِ الذي أتاهُ مِنَ الخلفِ دونَ أن يلتفتَ . سربُ النّعامِ بأكملِه جاءَ راكضًا تجاهَه . توقّفوا عنِ الرَّكْضِ فَجْأةً وأحاطوا به ، وعِندَما انهمرَ المطرُ بغزارةٍ وانهالَ عليهم ، راحَ كلٌّ مِن أفْرادِ السِّرْبِ الستّةِ ، الصّبِيِّ وطيورِ النّعامِ الخمسةِ ، يصفّقونَ بأَجْنِحتهم ورقصوا رقصةَ

فرحٍ داروا فيها حَوْلَ أنفسِهم .

ارتطمَ ماءُ المطرِ بالأرضِ . تجمّعَ في مستنقعاتٍ صَغيرةٍ بقيَت على الأرضِ وهَـدارةُ الذي كانَ يَقِفُ تَحْتَ المطرِ راحَ يسرّحُ شعرَه الطويلَ المبلّلَ بأصابعِه ، فهي المِشطُ الوحيدُ الذي كانَ لديه . كلُّ ما كانَ على طيورِ النَّعامِ فعلَه هو أن تفردَ أَجْنِحتَها وتنفضَ ريشَها بِوساطةِ مناقيرِها .

أحسّت كلُّ الكائناتِ الحيّةِ التي تعيشُ في الصَّحراءِ بالفرحِ فَجْأةً . رَكَضَت فئرانُ الصَّحراءِ الصّغيرةُ إلى هنا وهُناك ، خرجَت العقاربُ مِنَ جُحورِها ، رَكَضَتِ الأرانبُ فَوْقَ التِّلالِ ودبّتِ الحَيَاةُ في كلِّ النباتاتِ الجافّةِ .

أرادَ هَدارةُ استغلالَ الفرصةِ التي مَنَحها إيّاه صفاءُ الأمزجةِ لدى الجَميعِ . أوقفَ ماكو حينَ كانَت في طَريقِ عَودَتِها إلى المَكانِ الذي اختاروه لقضاءِ اللَّيلِ . أرادَ أن يتحدّثَ إليها على حدةٍ هذا المساء ، بَعيداً عن مسامعِ الآخَرين .

وَضَعَ يدَه حَوْلَ عنقِها ثمّ قالَ :

– تمدّدي هنا . سأخلّصُكِ مِنَ القَراداتِ التي وجدَت طَريقَها إليكِ .

كانَ المطرُ قد خفَّ الآنَ وتحوّلَ إلى رذاذٍ ناعمٍ . لكنَّ رائحةَ المطرِ العذبةَ كانَت لا تزال تملأُ الجوَّ . فرحَت ماكو لذلك . المعاناةُ مِنَ مَصّاصاتِ القَراداتِ هي معاناةٌ أبديَّةٌ . تمدّدَت على الأرضِ مباشرةً ومدّت عنقَها بمُحاذاةِ الأرضِ لِيَتَمَكَّنَ هَدارةُ مِنَ تَفْلِيَتِها . كانَ يسهلُ عَلَيهِ الإمساكُ بأصابعِه البشريّةِ ، بالقَراداتِ المنتفخةِ التي كانَت تلتصقُ بعنقِ ماكو .

كانَ يشدُّها حتّى تفلتَ قبضتَها عن جلدِ ماكو ، ثمّ يَنْظُرُ إليها

باشمئزاز . كانَ على علم بالمعاناةِ التي كانَت القَراداتُ تتسبّبُ بها لطيورِ النَّعامِ . لَمْ يؤذِ عادَةً ولَم يقتلْ حَيَوانًا ما إلّا إذا أرادَ أنْ يأكلَه ، لكنَّ القَراداتِ كانَت الاستثناءَ الوحيدَ . كانَ عادَةً يكسرُ شوكةً مِن نبتةٍ ما ثمّ يغرزُه في جسمِ ذلكَ الحَيَوانِ المنتفخِ . كانَ يضعُ القرادةَ على الأرضِ ويغرزُها بالشّوكةِ مرارًا . وفي نهايةِ الأمرِ كانَ يدوسُها بقدمِه إلى أنْ تختفيَ في الرَّمْلِ .

– لقد أرحتَني ، قالَت ماكو . أظنُّ أنَّ هُناك المزيدَ مِنَ القَراداتِ تَحْتَ جناحي .

– ماما ، قالَ هَدارةُ لأنّهُ كانَ يَعلَمُ أنَّها كانَت تفرحُ كَثِيرًا حينَ يناديها هكذا . كانَ يَعلَمُ تَمامًا عمّا إذا أرادَ أن يحدّثَها في هذا اليَومِ السّعيدِ الذي انهمرَ فِيهِ المطرُ ، لَكِنَّهُ أرادَ أن يطيّبَ مزاجَها قَبْلَ ذلك .

– ماما ، قالَ مردّدًا تِلكَ الكلمةَ ؛ لأنّهُ كانَ يَعلَمُ أنّها كانَت تودُّ سماعَها ثانِيةً .

هل تحكينَ لي تِلكَ القصّةَ التي تتحدّثُ عنِ السّببِ الذي يجعلُ طيورَ النَّعامِ عاجزةً عنِ الطّيرانِ؟

بينما عثرَ هَدارةُ على قَرادتَينِ وانتزعَهما مِنَ جلدِها ، روَت له ماكو القصّةَ التي كانَ قد سمعَها مرّاتٍ كَثِيرةً في السّابقِ .

– كانَت طيورُ النَّعامِ بارعةً جِدًا في الطّيرانِ في قديمِ الزّمانِ . كنّا نطيرُ على ارتفاعٍ عالٍ ولمسافاتٍ طويلةٍ . لَمْ نركُضْ حِينَها إذا أردْنا الانتقالَ مِن مَكانٍ إلى آخرَ بلْ كنّا نطيرُ . إذا أتانا حَيَوانٌ مُفْتَرِسٌ كنّا نرفرفُ بأَجنِحتِنا الضّخمةِ فنعلو في الجوِّ وننجو مِنَ الخَطرِ . لكنَّ طائرَ نعامٍ مغرورًا قرّرَ أن

يطيرَ حتّى يصلَ إلى الشّمسِ . قالَ للجَمِيعِ إنَّهُ سيطيرُ إلى الشّمسِ . وهكذا غادَرَ في صباحٍ باكرٍ . وقفَتِ النَّعاماتُ الأخرياتُ في مَكانِها على الأرضِ ، وراحَت تنظرُ إليه وهو يعلو ويعلو في الجوِّ . بدا في النّهايةِ كنقطةٍ سوداءَ في زُرقةِ السّماءِ .

سيصلُ إلى هدفِه بالتّأكيدِ ، قالَتِ النَّعاماتُ ، سيصلُ بالتّأكيدِ إلى الشّمسِ .

لكنّه لَمْ يصلْ لأنّهُ حينَ اقتربَ مِنَ الشّمسِ احترقَ جناحاه ، ثمّ تداعى نَحوَ الأرضِ . منذَ ذلكَ اليَومِ فقدَت طيورُ النَّعامِ قدرتَها على الطّيرانِ . أَجْنِحتُنا ضخمةٌ وجميلةٌ لكنّها لا تصلحُ للطّيرانِ .

عِندَما انتهَت ماكو مِنَ سردِ القصّةِ تجرّأَ هَدارةُ أخيرًا على طرحِ السّؤالِ الذي كانَ يدورُ ويدورُ في رأسِه مؤخّرًا .

– لَيْسَ لي جناحانِ ، لماذا؟

– بعضُ الصّغارِ يولدونَ بمظهرٍ يختلفُ عن مظهرِ الباقينَ .

– أعلمُ تَمامًا المظهرَ الذي تظهرُ به صغارُ النَّعامِ . لقد رأيْتُ كَثِيرًا مِن أفواجِ الصغارِ تفقسُ البَيضاتُ وتزحفُ إلى خارجِها ، لكنّي لَمْ أرَ يومًا فَرْخَ نعامٍ من دونِ جناحينِ . ولم يخرجْ أحَدُ صغارِك إلى الحَياةِ بذراعينِ .

– لبَعْضِ الصغارِ مظهرٌ يختلفُ عن مظهرِ الآخَرينَ ، هذا كلُّ ما في الأمرِ ، قالَت ماكو . تصوّرْ كم نفعَنا مظهرُك المختلفُ . تذكّرْ كيفَ تَسَلّقْتَ داخِلَ البئرِ وحملتَ إلينا المَاءَ . هذا أمرٌ أعجَزُ عنِ القيامِ به كَما أنّني أعجزُ عن رميِ الحجارةِ على بناتِ آوى . أنت قادرٌ على تَسَلّقِ الأشجارِ أيضًا وهذا أمرٌ يعجزُ عنه النَّعامُ .

– هل تعنينَ أنّني لَسْتُ طائرَ نعامٍ حَقِيقيًا؟
– نعمْ ، لكنَّكَ عشتَ معَنا طَوالَ حياتِك وصرْتَ واحدًا منّا .
– أنا مِن نوعٍ مختلفٍ إذن . مِنَ أيِّ نوعٍ أنا؟
– لَسْتُ أدري ، قالَت ماكو كاذبةً .
– لماذا أتيتُ للعيشِ معكم؟
– هلْ تريدُ معرفةَ ذلكَ حقًّا؟
– نعمْ ، أخبريني بذَلِكَ حالًا ، قالَ هَدارةُ وقد نفدَ صبرُه .
– لقدْ وجدْناك .
– ماذا؟ قالَ هَدارةُ الذي أحَسَّ أنّ عالَمَه بأكملِه بدأَ يتأرجحُ .
– كنتَ صَغِيرًا جِدًّا حينَ وجدْناك . لقدْ أحببْتُكَ منذُ أنْ رأيتُكَ وقرّرْتُ أنا وحوجُ أنْ نعتنيَ بك .

في تِلكَ اللَّحظَةِ تحوّلَ الرّذاذُ النّاعمُ إلى مطرٍ هاطلٍ بلّلَ كلاً منهما . تصبّبَ المَاءُ مِنَ شعرِ هَدارةَ الطويلِ وَراحَ جسدُه يرتجفُ وأسنانُه تصطكُّ مِنَ البردِ . كانَ المطرُ ينزلُ عَلَيهِ كالسّوطِ وينسابُ فَوقَ وجهِه ، فَوقَ شعرِه ، فَوقَ جسدِه وقدمَيه ممّا جَعَلَهُ يعجزُ عنِ الكلامِ . تجمّعَ ماءُ المطرِ حَولَ قدمَيه في بِرْكَةٍ صَغِيرةٍ . سارَ هو وماكو نَحوَ الآخَرينَ الذينَ وقفوا منكمشينَ مُحَدِّقينَ باستغرابٍ إلى الوديانِ الصّغيرةِ التي كانَت تنتشرُ في الصَّحراءِ ورأوها تتحوّلُ إلى أنهارٍ بنّيّةٍ جاريةٍ . فتحُ حديثٍ معَ ماكو باتَ الآنَ مستحيلًا . عليهمُ المغادرةُ حالًا والبحثُ عن مَكانٍ عالٍ لا تصلُ إليه تجمّعاتُ المياهِ .

لم يشكّلوا طابورًا هذه المرّةَ بلْ رَكَضوا جنبًا إلى جنبٍ لَكِنَّهم لَمْ

يتمكّنوا مِنَ الرَّكْضِ طويلًا . منعَهم من ذلكَ نهرٌ تكوّنَ قَبْلَ لحظاتٍ . أمامَ سيقانِهم جرَت كمّياتٌ ضخمةٌ مِنَ مياهٍ بنّيّةٍ فوّارةٍ مليئةٍ بالرَّملِ .

أرسلَ حوجُ إشارةً إلى الآخَرينَ يحثُّهم فيها على إسراعِ خُطاهم . عليهم أن يقطعوا النّهرَ الذي تكوّنَ أمامَهم فَجْأةً ليتمكّنوا مِنَ تَسَلّقِ التلِّ الواقعِ في الجهةِ المُقابلةِ . كانَ ذلكَ التلُّ عاليًا لا تصلُه المياهُ .

سارَ حوجُ في ماءِ ذلكَ النهرِ الجاري . سارَ بخطواتٍ عاليةٍ ورأسٍ مائلٍ إلى الخلفِ قليلًا . عِندَما وَصَلَ إلى الجهةِ المقابلةِ لحقَتْ به ماكو . تمكّنَتْ هي أيضًا مِنَ الوُصُولِ إلى الجهةِ الأخرى . كانَ هَدارةُ ثالثَهما الذي أحَسَّ بالمياهِ وهي تشدُّه إلى هنا وهُناك . في منتصفِ النّهرِ تأذّت قدمُه حينَ ارتطمت بحجرٍ ممّا جَعَلَهُ يتعثّرُ ثمّ يقعُ . صارَ رأسُهُ تَحتَ سطحِ الماءِ فَجْأةً . قاومَ بيديه وبساقَيه ، جرفَتْه مياهُ النّهرِ معها ، تقلّبَ في المياهِ الهائجةِ وامتلأَ فمُه بالمَاءِ والرَّمْلِ . سحبَه النهرُ بَعِيدًا بسُرْعَةٍ . كانَ اللَّيلُ قد حلَّ . تحوّلَ كلُّ شيءٍ مِن حَولِه إلى ظلامٍ حالكٍ . لَمْ يرَ نجومًا ولا قمرًا ينيرُ السماءَ . لن يتمكّنَ أفْرادُ عائلتِه مِنَ رؤيتِه حتى لو رَكَضوا بسُرعَةٍ في مُحاذاةِ النّهرِ بحثًا عنه .

جرفَتهُ كمّيّاتُ المياهِ الهائلةِ بَعِيدًا .

ملأَ رعبٌ أبيضُ روحَه .